محمد الشاذلي

عَشَرَة طاولة

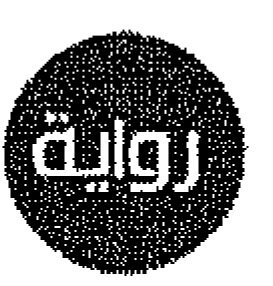
رواية





الدار المصرية اللبنانية

عَشَرَة طاولة



الشاذلي، محمد.
عشرة طاولة: رواية / محمد الشاذلي .- ط1 .-
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2014.
152ص؛ 20 سم.
تدمك:9 - 908 - 427 - 977 - 978
1- القصص العربية.
أ - العنوان 813
رقم الإيداع: 9928 / 2014

الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

الطبعة الأولى: رمضان 1435 هـ - يوليو 2014م

محمد الشاذلي

عَشَرَة طاولة

رواية

الدار المصرية اللبنانية

1

قررنا الذهاب إلى بلبيس حيث يمكن أن نرى صلاح أبو الخير، بعد أن أبلغني كمال راشد أنه أحرف لاعبي الطاولة في مصر. حكى لي كمال أن هزيمته تعد من الأمور المستحيلة. وبات علينا الاتفاق على يوم للسفر، وأن يكون معنا خالد الشيخ، وهو ثالثنا الدائم، وأن يكون صلاح بالأساس في بلبيس، وليس في زيارة لابنته المتزوجة في الإسماعيلية، أو لشقيقة زوجته المريضة في بورسعيد.

كانت حماستي للسفر، أو في جزء منه، سببها استكمال لخططي للخروج من كتلة القاهرة الصلدة بسياراتها، وبناياتها، وناسها، إلى مكان ما خارج القاهرة، أجد فيه بعض العزاء. حاولت قبل شهر، وكنت مع أصدقاء في مزرعة خيول في المنصورية، القريبة إلى حد ما، ولكنها حققت فعل الخروج.

في المنصورية وقفت فوق سقف غرفة العلف في المزرعة، بعد أن صعدنا إليه بسلم خشبي، ووقفت مذهولًا لأرى الأهرامات من موقع لم أشاهدها فيه من قبل، وتمنيت على صاحبها فاروق سليمان أن يبني سلمًا حجريًا، وأن يمهد للجلوس في هذا المكان،

الذي لا يقدر بثمن، وأبلغنا بأنه يعد العدة لذلك بالفعل، وأنه في زيارتنا المقبلة ستكون الجلسة هنا فوق السطح.

كانت الخيول تجري تحتنا، وكأنني فارسها، أنا الذي لم أركب خيلاً من قبل، وأقصى ما ركبت من دواب كان حمارًا في إحدى زياراتي وأنا طفل لقرية أبي، وأسقطني في الترعة.

قال لي فاروق إن الخيل ليس لها سن، وإنه بإمكاني أن أركب الخيل الآن، فشعرت بقشعريرة في بدني لم أتبين أكانت من الخوف أم من الرغبة، ولكنني استبعدت الفكرة تمامًا.

قبل أيام، ذهبت إلى مزرعة سمكية يستأجرها خلاف إبراهيم في محمية وادي الريان بالفيوم، وكنت تعرفت إليه خلال قطع أهالي منيل شيحة طريق الصعيد بسبب اختفاء طفل، وكان وحده في سيارته، ونزلت من الباص لأستطلع الأمر، وتبادلنا أرقام الهواتف، ثم بعدها بأيام التقيته مصادفة على ناصية شارع العريش في الهرم، وأصر على زيارتي للمزرعة التي يستأجرها، ولم تكن إلا أيام ومر عليّ بسيارته نصف النقل، وأخذني من أمام بوابة نادي الرماية.

وذهبنا إلى الفيوم، ومنها إلى وادي الريان، لأرى مكانًا غارقًا في الهدوء والسكينة، وأنا إذ أعطي ظهري للشلال، ولم أكن أتصور أنه صغير إلى هذا الحد، كنت أتصوره هادرًا، وهو ما يعطيه لفظ «شلال» من معنى، لأرى بحيرة زرقاء تليق بالأنبياء، كأنها لوحة

مرسومة ومعلقة في الجبل البعيد. والآن سيكون الذهاب إلى مزرعة خراف أبو الخير في بلبيس بالشرقية بهدف مزدوج، وجدت بعض العزاء في صحبة الخيول والأسماك، وقد أجده في «صمت الحملان».

كان كمال في داخله يبحث عمن يهزمني، بعد أن عاتبناه أنا وخالد على تركه مقهى «الدمس» في عابدين قبل نهاية العشرة الثالثة، فقد كان الدُش الذي جاءني مدمرًا لمعنوياته وأمله في الفوز بعد عشرتين «صائمتين»، كما يحلو له تسمية العشرة التي لا يحصل فيها على أية نقاط. كنا نسمع «حيرت قلبي» لأم كلثوم من فلاشة خالد، التي أعطاها إلى عامل المقهى لتشغيلها قبل الموعد الرسمي لأم كلثوم في إذاعة الأغاني في الساعة الحادية عشرة؛ لأننا كنا ذهبنا أبكر من المعتاد. وكان كمال قد أتى بأعواد نعناع أخضر، يزرعه في شرفته، ووضعناها مع الشاي، ولكننا لم نجد مفرًّا من مطاردته بالتليفونات، ولم يرد إلا بعد نصف ساعة على الأقل، وقال إنه يشتري «بقسماط» وسيعود. وقد كان، وعاد ومعه كيس بقسماط صغير، وطلب شايا دون نعناع لثلاثتنا، وجلس متجهمًا، ولم يرفع عينيه أبعد من أصابع البقسماط، ثم وهو يغمسها في كوب الشاي رفض ما ذهبنا إليه من أنه غضب من الهزيمة، وأصر، وهو ما سيحدث بعد ذلك دائمًا، على أنه الزهر ليس إلا، وأننا في النهاية

نلعب. هذا ما يقوله بعد هزائم أكثر وانتصارات أقل. كنت أداعبه كثيرًا عندما يقول ذلك، وأرد عليه بأنه الزهر بالتأكيد، وأن حظه كان سيئًا، كما أنني أيضًا ألعب.

أتذكر في ذلك اليوم أنها المرة الأولى التي يذكر فيها اسم صلاح أبو الخير، وأيده خالد الشيخ، الذي يكاد يحرك القواشيط؛ لأنه رأى صلاح يلعب. وعلى السيرة هزمني كمال يومها، أو أنني تأثرت نفسيًّا من غضبه، فانعكس ذلك على رمية الزهر، فلم يعد يأتيني بالـ«بافات» أو الأرقام المناسبة قط، وفرح كمال بشدة، ولم يعد يستطيع إخفاء ابتساماته وضحكاته، ثم تهليله في نهاية الأمر، وقال لي إن عليَّ أن ألاحظ أنه يلعب من أجل اللعب، ولكنني محظوظ، ورغم ذلك ألعب بجدية وتجهم.

في أحد المساءات القريبة، دخلت على خانة الأصدقاء على صفحة كمال، على «الفيس بوك»، ورأيت من بين صديقاته آلاء، كبَّرت صورتها ولم أجد ضرورة للضغط على «حول» لأعرف معلومات عنها، فالصورة شدتني بقوة، صورة جميلة لامرأة توصلت إلى نصف الحقيقة، كما يقول وجهها، وما أجمل امرأة تكون توصلت إلى نصف الحقيقة، وضغطت على «صور» لأجد ست صور مختلفة للوجه نفسه، ما أكد لي أنها صورها وليست صورًا مستعارة.

قلت رأيي في وصف آلاء من صورها في اليوم التالي عندما التقيت كمال، فطلب مني فورًا أن أبلغ هذا الرأي لآلاء في رسالة على صفحتها، ورفضت بشدة، فما كان منه إلا أن أبلغني بأنها زميلته في النقابة، وهي مهندسة ديكور، ومن عشاق الطاولة، فوافقت. وعندما التقيتها بعد ذلك في ورشتها بالمهندسين، أدركت كم كنت دقيقًا في وصفي لها من خلال صورتها على «الفيس بوك»: وديعة وهادئة، وواثقة من نفسها، للدرجة التي كانت تستخدم وسط أي حديث لها مقولة إن هذا رأيها، وإنه غير ملزم لأحد. وبدت وكأنها تبحث عن نصف الحقيقة الثاني لكي تأمر من حولها، ولكن كان هناك شيء ناقص باستمرار.

كنت صباح ذلك اليوم قرأت في صحيفة أن علماء تمكنوا من إثبات مقولة: «إن الرجال لا يفهمون مشاعر المرأة، وإنهم يعانون صعوبة في فهم أحاسيس المرأة من خلال النظر إلى عينيها». اعتبرت الدراسة هراء؛ لأنني فهمت أحاسيس آلاء من مجرد النظر إلى عينيها في الصور، وتأكدت مما وصلت إليه من الجلوس إليها مباشرة. ونقل كمال إليها ما قلته عن امتلاكها نصف الحقيقة، فذهِلَت!

واضطررت لكي أشرح الأمر، ولكي أحاول فتنتها بالحديث المختلف، إلى تحليل نظرتها غير الخجول، التي تفيض قناعة بأن الآخرين لا يكادون يساوون شيئًا. ويبدو أنني أصبت، لأنها منعتني من الاسترسال، وقالت لي: أرسل لي طلب صداقة، وتركناها لعملها في الورشة، بعد أن اتفقنا على أن تلحق بنا للعب الطاولة الليلة.

انتظرنا آلاء في مقهى «جوهرة الخليج» في الدقي، ووصلت بعد اتصال متكرر بكمال للحصول على وصفة دقيقة للمكان، وعندما جاءت متأخرة حدثتنا عن الارتباك المروري في ميدان الجلاء، وحول قسم الدقي، فقد كانت عناصر حركة «حازمون» تتجول بغضب في المنطقة، وقالت إنها خائفة من تطور الأمر بحرق القسم، أو اقتحامه.

طافت بعينيها في المكان، الذي يحوي مقهى مجاورًا و«كوافير» ومحلًّا للساندويتشات وفطائر «أنتخ»، وحولنا مائدتان يلعب الجالسون حولهما الطاولة، وقالت إن حزب الكنبة يبدو أنه أصبح حزب الطاولة.. وعلق كمال بأن المقاهي لا تُهاجَم في المظاهرات ولا يحرقها أحد مثل ما جرى للأقسام والسجون، فمن فيها لا يحتاجون إلى الهرب، هم هاربون من الأصل!.. وردت آلاء بأن كل هذه الثقة لأنه موظف في الحكومة، والموظفون هم الأكثر استقرارًا بعد الثورة، والآخرون إلى ضياع. وكنت أنا الآخر موظفًا، فاقترحت آلاء على خالد، باعتباره محاميًا حرًّا، أن يشكّلا معًا تحالفًا ثوريًّا جديدًا لإسقاط الموظفين.

2

ذهبت إلى الأستاذ عبد الله سعيد في مقهى «زهرة الميدان» في السيدة زينب، هو الأقرب من بيته. لا ينزل سعيد بعد المعاش من البيت إلا إلى البنك، أو عيادات الأطباء، ولم يعد، كما أخبرني، أحد غيري من خارج العائلة يتصل به. قال لي: لقد رأيت بنفسك الهواتف الأربعة التي لا تتوقف عن الرنين في مكتبي، بخلاف تليفون المنزل. الذي اضطر لتركيب تليفون خاص بعد شكوى زوجته وأولاده، وهاتفا المنزل بدورهما الآن لا يستقبلان أي اتصال له، وأكد لي أنه ليس له أنيس الآن سوى الله.

عملت مع الأستاذ عبد الله بضعة أشهر، في بداية عملي في مصلحة الضرائب في لاظوغلي بعد تخرجي. كان ذلك في العام 1986، وفي اليوم الأول سألني عما إذا كان لي في عَشَرَة طاولة، ونزلنا قهوة المالية المغلقة الآن، بعد أن تناوبت عليها أنشطة المطاعم.. أَسَرَني وما زال، هو الذي أدخلني في السلك الوظيفي فورًا، وضمَّني لزملاء المالية، واستمررت في مداومة السؤال عنه. وعندما عملت في مأمورية المعادي كان يرسل لي بعض التكليفات،

كما أوصى بي مرات عند زيارته للمأمورية. كانت الزيارة مفاجئة وكنت أول من سأل عنه، سمعت صوته في الطرقة يسأل بود وحميمية عني «أين مكتب الأستاذ رجائي متولي؟» فهرولت نحو الصوت مرحبًا وخجولًا من مناداتي بالأستاذ أمام زملائي الذين تجمعوا حوله احترامًا وخشية.. وبعد خروجه إلى المعاش واظبت على السؤال، دون انقطاع، ولكن الفترات التي أنساه فيها تطول كلما مر الوقت. ولكنني كنت أعود للسؤال مذكرًا نفسي بأن ما أفعله الآن سأتمنى لو أن أحدًا فعله معي عندما أصبح في حالته.. هكذا أفكر في الناس، وفي نفسي، وأتمنى أن ألقى الأمر نفسه، وخشيتي أن تظل هذه الأفكار أوهامًا.

حكى لي الأستاذ عبد الله في هذا اللقاء عن تجارب جديدة في الحسابات يجريها لفهم العالم، ومنها تجربته شبه اليومية، حيث يدخل غرفته ليلًا، ويغلق النافذة بإحكام، ويستلقي على سريره، ويمسك الكشَّاف الكهربائي ويسلِّط الضوء في منتصف سقف الغرفة، ثم يرد بصوتٍ خفيضٍ على ملكين، أحدهما يمين دائرة الإضاءة في السقف، والآخر على الشمال، ويجيب عن تساؤلاتهما عما فعل في دنياه.

أكد الأستاذ عبد الله لي أن إجاباته تتحسَّن كثيرًا، وأنه يحكم السيطرة على الكلمات التي ينطق بها في حضور الملكين، وأنه بعد ذلك يشعر بارتياحٍ عظيم، وينام ملء جفونه. وسألني عن الحال في

مأمورية إمبابة حيث أعمل، خصوصًا بعد الثورة والفوضى التي نعيش فيها والحصيلة السنوية. رددت بأنها كأي شيء في مصر، ارتباك وعدم يقين، والحصيلة كما تعرف. نحن نضغط على الناس لنحقق المستهدف، بينما يأتي الممولون يريدون إثبات وقف الحال بكل الطرق، ونتعاطف معهم لأن الحال واقفة فعلا.

لمس تشاؤمًا في صوتي، ما جعله يؤكد لي أن الأحوال ستتحسَّن، وأن الأوضاع لا يمكن أن تستمر هكذا..

«زهرةُ الميدان» معروفة بأنها «نادي الشطرنج»، ووسط ست أو سبع مناضد تتوسطها جميعا رقع الشطرنج لم تكن سوى طاولة واحدة على منضدة مجاورة، يلتف حولها أربعة محيطون باثنين يلعبان الطاولة، وينبه أحدهما الجميع إلى عدم المشاركة في اللعب، ويطلب منهم المشاهدة فقط، وإلا لن يكمل العَشرَة. وهي ذكرتني بقهوة مرعي في ميدان الجيزة التي ما زال لاعبو الشطرنج يجدون فيها متسعًا.

وسألته عما يفعل الآن لأشد انتباهه بعيدًا عن منضدة الطاولة، فأكد أنه لا ينزل إلى أي مكان، وأنه ينهض من النوم متأخرا وليس كأيام الوظيفة، ثم يتناول إفطاره ودواءه، ويصلِّي الظهر في غرفته، وينتظر ساعة التجويد في محطة القرآن الكريم، ويمسك بالمصحف ويردد مع الشيخ.

نظر مجددًا إلى منضدة الطاولة، وطالع وجوه المحيطين بها، فسألته إذا كان يلعب الطاولة حاليًا، وقد كان مدمنًا لها، فأخبرني أنه توقف تمامًا، وتحدث عن أيامه مع «المحبوسة». وقال إن مصر كلها باتت تلعب «واحد وتلاتين» الآن، وإنه رغم إجادته لها، لم تجذبه قط.

بدأ المتحلقون حول المنضدة المجاورة يتصايحون، ويرد من كان طلب منهم عدم التدخل في اللعب بأنه لن يدفع ثمن المشروبات، ونظر لهم لاعبو الشطرنج بغضب وهم يتبادلون النظر فيما بينهم فعاد لاعبو الطاولة إلى الهدوء.. لكن الأستاذ عبد الله انزعج من الأصوات وخرجنا، رغم لمسة البرد ونحن في بدايات مارس تقريبا، إلى الرصيف بأوامر منه، وكأنه استعاد زمن الوظيفة وقد خرج على المعاش مديرًا عامًّا.

حضر شاب ثلاثيني، وصافحنا بتردد، وقدمه لي الأستاذ عبد الله فقط بأنه تامر، ولم يقل لي إنه زوج حفيدته، وهو ما فهمته من سياق الحديث السريع الجاف الذي جرى بينهما، واعتذر الشاب لأنه لم يجده في المنزل، وقالوا له إنه في «زهرة الميدان»، فجاء.

تحدث تامر عن محاضر في قسم البوليس، فنظرت إلى قسم السيدة زينب، الذي كان غارقًا في بقايا حريقه خلال الثورة، عندما جلست أنا والأستاذ عبد الله آخر مرة قبل نحو سنة، وكنا نجلس في

مواجهته تماما. قال تامر إنه لم يكن البادئ، وإن المحضر الوحيد قدمه في شهر ديسمبر الفائت، وثلاثة محاضر قدمتها إسراء في شهر أكتوبر. ودفع في يد الأستاذ عبد الله بأوراق، قائلاً: إنها صور المحاضر لتقرأ بماذا اتهمتني، وكرر أنه لم يبدأ، وأنها تدبر للمسألة منذ فترة.. وبدت مساحة احترام للأستاذ عبد الله في صوت تامر وهو يقول إنه ينوي خيرا مثله ولكنها لا تنوي الخير أبدا.

لم يكن الأستاذ عبد الله يرغب في حدوث ذلك أمامي، وكنت في لقائنا الأخير عرفت أنه يتابع، في ظل ظروفه المادية الصعبة، مساعدة ابنته في الإنفاق على أبنائها، بعد وفاة أبيهم، وها هي حفيدته تتعثر حياتها الزوجية. وطلب من تامر الانصراف الآن، ووعده بقراءة الأوراق والتصرف على هذا الأساس.. وعلا صوته وهو يشدد على أنهما إما يعيشان معًا بالمعروف، وفي منزل مستقل، أو ينفصلان. وبعد أن راح البريق، الذي كان يتحدث به الأستاذ عبد الله عن تجاربه الحسابية الجديدة، تكلم بحزن عن أن تامر تم تسريحه من عمله بعد الثورة، فصاحب المصنع أغلقه ولم يعد يدفع أجورًا، ولم ينفذ وعده بتعويض العمال، ولم يتمكن تامر من دفع إيجار الشقة القانون الجديد، وحفيدته لا تعمل، والبيت لا يتسع لأمها وأشقائها.

لم يوافق قط على انتقال حفيدته إلى منزل عائلة زوجها، فالعائلات الكبيرة لم تعد كما كانت في الماضي، في ظل الطمع والحسد والأحقاد التي تملأ الجميع، وفي غياب الأب أو الجد صاحب الكلمة في الأسرة، وقال إن الناس لم تعد كما كانت، ولم تعد تحاول - مجرد المحاولة - التمسُّك بالدين، أو الأخلاق.. وردد الآية: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾.

ولكنني لأسترده من الإحباط سألته فيما شغلني طويلًا ولم أجد له إجابة، وهو الأمر الذي حدثني فيه قبل قدوم تامر، لماذا اختفت «المحبوسة» وصارت مصر كلها تلعب «واحد وتلاتين»؟ ففاجأني بالقول إنه رغم عشقه القديم للطاولة بات واثقًا، ومن خلال حسابات مؤكدة أجراها أخيرا، أنها وقبل الثورة بسنوات تنتشر بفعل فاعل؛ تمهيدًا لعودة الفرس. فاللعبة فارسية في الأصل، ولا يوجد شيء قادم من إيران يمكن مقاومته في مصر، هذا درس التاريخ. مصر تم غزوها من الشرق أكثر من الغرب والجنوب، حيث غزاها الإثيوبيون، وطردوا الليبيين منها، ودخل الهكسوس مصر قادمين من شرق المتوسط، وطردهم الملك أحمس إلى ما وراء الفرات، ودخل الآشوريون مصر من الحدود الشمالية الشرقية وطردهم المصريون بتشجيع الكهان، ومن بعدهم جاء الفرس بقيادة ملكهم قمبيز، بعد وفاة أحمس الثاني وفي عهد بسمتيك الثالث، ولم يطردهم سوى الإسكندر الأكبر، ثم جاءوا مرة أخرى قبل الإسلام بقليل، ومكثوا تسع سنوات، وطردهم هرقل ملك الروم.

وسكت الأستاذ عبد الله قليلًا وهو ينظر بحدة إلى أحجار الرصيف، وكأنه سيقتلعها، ويقول إن قمبيز هذا لم يكفِه احتلال مصر وإنما كان غاضبًا لأن أحمس الثاني كان ميتًا قبل أشهر، ورغم ذلك لم يراعِ حرمة ميت، وأمر بإحضار جثمانه وأعطى الأوامر بجلده ونتف شعره والتمثيل بجسده، ولم يفلح لأن الجسد كان محنطًا، فازداد غضبه، وأمر بحرقه. أبديت دهشتي، ما لاحظه الأستاذ عبد الله، فسألني إن كنت أصدق هيرودوت الذي قال إن مصر هبة النيل، وإن الحضارة الفرعونية ليست سبعة آلاف سنة كما قال السادات وإنما 11 ألفًا و430 سنة، فأجبته بنعم على الفور، فقال إن هيرودوت نفسه هو من سرد هذه القصة، وزاد عليها بأن عبد النار قمبيز هذا أمر بالعبث في كل ما تطوله أيدي جنوده من مومياوات. إنه حقد الهمجيين على الحضارة، ولكنَّ النوبيين لقنوه درسًا وفشل في احتلال هذا الجزء من مصر، وقال إن ما يعنيه أن الفرس هم من قطعوا تواصل الحضارة الفرعونية القديمة.

ونظر بعيدًا إلى مسجد السيدة زينب، فسألته عما إذا كان يخاف من انتشار الحجاج الشيعة هنا على أهل الحي، الذي ولد وعاش فيه كل هذا العمر المديد، فرد قائلاً إنه يخاف على السيدة زينب وليس على أهل الحي من الشيعة، فالسيدة زينب عنده جنسية وليست حيًّا. قبل أن أنهض نصحته بالدخول إلى عالم «الفيس بوك» وشرحته

له، وأشرت إليه بأن يقوم ابنه وليد بفتح صفحة له، بعدها سيكون بإمكانه تأسيس صداقات في عالم افتراضي فادح، وأنه بالتأكيد سيجد من يتفاعل معه.

3

بعد أن لحقت بنا آلاء إلى مقهى «جوهرة الخليج» في الدقي، وتابعها كمال على الموبايل حتى تمكنت من ركن السيارة والوصول إلينا، وأفسحنا لها مكانًا قبالتي بالضبط، ولم نكمل دورًا كنا بدأناه أنا وكمال. جلست أمامي وفي عينيها نظرة الثقة ذاتها، وبدأنا اللعب، وَطَلَبْت شيشة تفاح وشايًا. كانت تجيد اللعب ولكنها لم تهزمني قط، وبعد عَشَرَتَيْن قالت: طلباتك، أدفع ثمن المشاريب أم تريد شيئًا آخر؟

فاجأتني لهجتها، وأكملت بأننا الرجال هكذا، لكل شيء عندنا ثمن.. كلمات سريعة متلاحقة تكشف معاناة حقيقية لم ألحظها في المرة السابقة، ولم أفهم سببًا لذلك، فيما كنت استبعدت محاولة الفهم من الأصل. لم أطْلب شيئًا تلك الليلة، إلا أنه بعد أيام شعرت بأن هناك حياة خاصة لآلاء يجب أن تُفهم على مهل، وذلك عندما اتصلت بي وقالت إنها في خلوة، وتنتهي منها في الثانية ظهرًا، ويمكننا أن نلتقي بعد ذلك؛ ولأن الخلوة كانت قريبة من السيدة عائشة، وأنه بوسعها استخدام نفق الأزهر، فاتفقنا على لقاء بعد ساعة أمام بوابة «جروبي» في ميدان طلعت حرب، وبعدها ننطلق..

وحِرت في أمر هذه الخلوة، وقررت أن أسألها عنها..

كان الإزعاج في الميدان أكثر من المعتاد، رغم عدم وجود حركة سير مكثفة، ولكن أبواق السيارات لم تكن لتتوقف، ولمحنا شابًّا وفتاة يرفعان لافتة ورقية تبيّنا ما بها بصعوبة «لو بتكره الإخوان.. اضرب كلاكس».. ووسط أصوات الكلاكسات دخلت آلاء في حوار مع الفتاة، ووقفت أستمع، وقالت الفتاة إن أباها لم يترك الميدان منذ عام 1972 وإنه كان يلعب ثورة ولا يلعب سياسة.. وقالت: إن أبي كان مقتنعًا بأنه لن يدخل الميدان إخواني واحد، وتحقق ما قاله لسنوات طويلة. ورفعت صوتها أكثر ربما للتغلب على صوت الكلاكسات، بأنهم لم يدخلوه سوى مساء 28 من يناير، ولم يسيطروا على مفاصل الميدان إلا بعد «موقعة الجمل»، التي كانت إيذانًا بنهاية مبارك وبداية عصر الإخوان، الذين وضعوا ميليشياتهم على مداخل الميدان، وأجبروا الناس على إبراز هوياتهم.

ولامست جسد آلاء بشكل بدا طبيعيًّا لكي أقرب أذني من فم الفتاة، بعد أن خفت صوتها قليلا وهي تقول: بعد خطاب الأحزان العاطفي لمبارك، فإن نصف من كانوا في الميدان تركوه، ولما جرت «موقعة الجمل» قال لي والدي رحمه الله: لماذا تركتم الميدان؟ ففي مواجهة الإخوان، لا تتركوا شبرًا مما في حوزتكم، لأنكم لن تجدوه عند عودتكم، وهو ما حدث فعلًا، وبعد تخلي مبارك تركوا الميدان بالأمر المباشر من قياداتهم، وما كادوا يفعلون، فاستطعنا العودة إليه ولن نتركه أبدًا.

وعادت إلى الهتاف، فأبعدت كتفي عن ذراع آلاء، وواصلت الفتاة: يذهبون إلى جامعة القاهرة، وإلى رابعة العدوية، وإلى جهنم ولكن الميدان لا، وهم يقولون عنا بلطجية، نحن الثورة المستمرة، والتواصل الثوري.. قلت ربنا يوفقكم لأنهي الحديث، وأمسكت بيد آلاء وتركتها في يدي مطمئنة، ومضينا ولم يهدأ صوت الكلاكسات إلا بقدر ابتعادنا عن الميدان، حيث ذهبنا سيرًا على الأقدام إلى منطقة معروف، عبر شارع محمود بسيوني، إلى مقهى التكعيبة في شارع النبراوي خلف السور الجانبي لقصر شامبليون المهجور. ناديت على أحمد الذي رحب بنا ووضع بسرعة منضدة أسفل الرصيف بجوار البيت السري الذي لم أفض غموضه قط، وسمعت يومًا أنه تابع للمخابرات، وهزمتها في العَشَرَة الأولى، وقلت لها: سأطلب الآن.. ما الخلوة؟ وما حكايتك؟

قالت إن لها شيخًا، خرجت عن طريقه من أزماتها، وهزمتها في عَشَرَة ثانية لتحدثني عن هذه الأزمات.. فقالت إن أزمتها الأولى كانت طلب الطلاق، وهي في معركتها الرهيبة كاد حادث سيارة أن يقتلها، ولكنه بدلًا من ذلك فتك بجسدها، وإنها أجرت ست عمليات جراحية لترميم المنطقة السفلية من جسدها، هكذا سمَّتها، وقالت إنها واثقة من أنه كان يريد الطلاق أكثر منها، ولكنه كان خائفًا من أن أفضح نفاقه الاجتماعي، وظن أن تمسُّكه أمام الناس

ببقائنا معًا سيجعله ضحية امرأة متكبرة، وبات يروِّج عني أكاذيب، ورغم ذلك صوَّر الأمر فيما قد يخدمه في أي شيء محتمل، فيما جعله يبدو وكأنه يريد البقاء معي لرعايتي.

لم يكن كلامها واضحًا بأي حال، ولكنني لم أكن لأقتحم وأطلب التفاصيل الآن، لم أتعود ذلك قط، وغالبًا أنتظر الحقيقة تأتيني، هكذا أتصور نفسي، وأظن دائمًا أن هذا ما يجب أن يتصف به البشر. وقالت موجهة حديثها لي وكأنَّ آخرين معنا: الآن قد تكون عرفت لماذا رأيت في وجهي أنني أمتلك نصف الحقيقة، لقد ذكرت لشيخي وصفك لي من صُورتي فتعجب، وأكد لي أنك قد تكون سيدنا الخضر، ولكنَّ لي رأيًا آخر، ودمعت عيناها، هو أنني لا أمتلك سوى نصف الأشياء، نصف جسد، ونصف روح، ونصف الحقيقة.

وضحكت وهي تجفف بعض بلورات دمعية من فوق خديها، وبصوت مرتفع نوعًا ما وهي تضيف: ونصف شاليه في السخنة..

ولعبنا عَشَرَة جديدة، وهزمتها، ونظرت بسحر جَرَّأني لكي أطلب أن ألاعبها عَشَرَة طاولة في العين السخنة..

ولم تكن سوى بضعة أيام حتى كنا في سيارتها على طريق القطامية – السخنة، الذي شيدته القوات المسلحة، وعلى رأس الطريق جدارية تضم الصورة الوحيدة الناجية لمبارك من كل الصور

التي اجتهدوا في وضعها في أماكن كثيرة في زمنه، ومحتها القوى والحركات الثورية. ويبدو أن ارتفاع الصورة الشاهق لم يدع لأحد الفرصة أو يشجع على بذل العناء للوصول إليها، كما أنها متوارية إلى حد ما، وربما لا يلحظها كثيرون. حدثتني آلاء عن أنها حصلت على نصف الشاليه، بما أنه يمكن اقتسامه في تسوية الطلاق، بينما توزعت فرادى كل الأشياء المادية والروحية الأخرى..

كنت قد أبديت رغبتي، بما أننا نلعب الطاولة تقريبًا يوميًّا، بأن نشتري طاولة، ونضعها في سيارة خالد، لنلعب بها في أي مقهى، بدلًا من الاعتماد على حظوظنا في جودة الطاولة، ونظافتها وإمكانية نقلها الأمراض.. ولم أكن أجرؤ أن أحدثهما عن مشروع يوم السخنة أبدًا، وأنني في سبيلي لشراء طاولة لألعب عَشَرَة مع آلاء.. ووافقني خالد، هو الذي اقترح شراءها من أحد المقاهي التي نرتادها ويعرفنا أصحابها، ولكن كمال رفض الاقتراح، متحدثًا عن الاستغلال الذي سنتعرض له، كما أنني أبديت ميلًا واضحًا لأن نشتريها جديدة.. وقال كمال إن هناك محالَّ تبيعها في شارع محمد فريد قريبًا من محطة مترو محمد نجيب في عابدين، ولم أجب عن تساؤلاتهما، ولماذا أتعجل في شرائها؟! وقررنا الذهاب ثلاثتنا لشراء الطاولة.. نزلنا عابدين أولًا مع أنني فكرت في الحُسَيْن، وقال خالد: نذهب إلى المكانين، ونرى، ولكننا لم نذهب إلى الحسين قط.

كنا في طريقنا إلى عابدين، عندما سألت كمال عما إذا كان صلاح أبو الخير يأتي إلى القاهرة، أو أن ندعوه للعب معنا في «نور الصباح» أو «الدمس»، فأكد كمال أنه يأتي لقضاء مصالحه، ولا يطيق المبيت، ويعود فورًا إلى بلبيس.. وشرح لي أن لصلاح مقاهي، ومملكته هناك، ما زادني تحرقًا لكي ألاعبه وأهزمه، رغم أنني أعرف معنى حريف الطاولة، كما عرفته في النور محمد في «مقهى قصر الشوق» في شارع السودان المفضَّل للنوبيين، والذي لم أهزمه قط، وكان يشدد على أنه لن يتركني أهزمه أبدا، رغم كونه ممولًا وقد أنفعه في المحاسبة الضرائبية، وعبد الرحيم مرسي، زميل الدراسة في تجارة القاهرة وكنا نلتقي قريبا من منزله في مدينة الطلبة على «مقهى الربيع» أمام المحكمة، الذي هزمته عشرة واحدة بصعوبة.

كنت أخطط للخروج من القاهرة قدر الإمكان، ما جعل الرحلة إلى بلبيس مطلبًا يشوبه إحساس بسحر ما، وذلك من دون التخلي عن معرفتي بالمدن الريفية، وأنها لن تكون أحسن حالًا، تحت أي ظرف، مما نعيش فيه في القاهرة.. لقد قال لي مرشد سياحي من أسوان، في جلستنا مع النور محمد في شهر رمضان الماضي: إن الحياة في القاهرة أفضل حتى إن لم تجد فيها عملاً، يمكن أن تبيع التراب.

وفي عابدين، وجدنا من يبيعون الطاولة في محال الألعاب الرياضية، وعلقت بأنه لم يبقَ للطاولة إلا أن تكون ضمن الألعاب

الأولمبية، وقال خالد إن بعض المقاهي في وسط البلد يقام فيها أحيانا دوري للطاولة ولم نصدقه، فقد حكى سابقًا عن حي لأثرياء الشحاذين في كراسة ولم يدلنا عليه قط. كدت أشتريها ولكن كمال أراد ألا نتعجل وتوجهنا إلى المناصرة، وتخيرت رجلًا توسمت فيه عدم الاستهزاء بسؤالي، أو أن يقول لي إن الطاولة حرام، فدلني على الحسين..

وتذكر خالد أيام كان يدافع عن أحد الإرهابيين في قضية خان الخليلي، وأنه كان يقف خلف سجن مديرية الأمن، ويشاهد ورشًا لصناعة الطاولة.. كان المكان قريبًا، فمضينا في شارع محمد علي إلى باب الخلق، وتركنا السيارة في مدخل شارع حسن الأكبر، وعبرنا سيرا خلف المديرية، ودخلنا شارع درب السعادة حيث انتشرت دكاكين الأخشاب.. وسألنا شابًّا، وكنت أفضِّل كهْلًا، عن ورش الطاولة، فقال لنا: في أول باب النصر من جهة باب الشعرية ستجدون الطاولات والشيش.

عدنا إلى السيارة، ومن شارع حسن الأكبر انطلقنا إلى ميدان محمد فريد، فميدان مصطفى كامل، واختلفنا في الطريق الأسرع، وهل نستخدم نفق الأزهر، أم ندخل من شارع الجيش، ولكن صلاة العشاء حسمت الاختيار. وصلينا العشاء في مسجد خلف المسرح القومي، وكان الإمام يقلد الشيخ الحصري. وبعد العشاء توجهنا إلى باب الشعرية، ومن ثم دلفنا يمينًا إلى باب النصر، وتركنا

السيارة بعد المدخل مباشرة وترجلنا. لم أعرف الكثير من الأسرار حول صناعة الطاولة ولكنني أخذت واحدة مكتوبًا عليها صُنعت في دمياط، واشتريت قواشيطها المصنوعة في الصين. طاولة عادية لأن المطعمة بالصَّدف يصل سعرها إلى مائتي جنيه، وعدنا إلى «الدمس».

4

كان الشاليه في أضيق منطقة ما بين الجبل والساحل في السخنة، ويطل على الماء مباشرة، فلا تشعر أبدًا برحابة البحر كما في الإسكندرية، ولكنه المشهد الذي يعطيك إحساسًا مختلفًا بالخصوصية، بينما وجدته مناسبًا لخلوة كالتي تحدثت عنها آلاء، ولكن من دون معنى ديني حتى الآن.

كان الطريق قريبًا، وضغط الجبل على يميني قائم طوال الوقت، ولكن المخاوف في داخلي كانت متعلقة أكثر بإمكانية أن يكون شاغل نصف الشاليه الآخر موجودًا. طمأنتني آلاء بأنه لا يذهب أبدًا، وأنها عرضت عليه شراءه، ولكنه العناد الذي جعله يرفض. وقالت إنه لم يعد بحاجة إلى الشاليه، بعد أن بات حرًّا في شقة القاهرة التي تركتها له في المقابل، وإنه يكره السخنة، ولم يشترِ الشاليه إلا بضغط منها، ومساهمة مالية تمثَّلت في مقدم الشاليه. كانت سيدة رحلات بامتياز، ففي بضع دقائق أعادت تشغيل الكهرباء، والمياه، ورفعت أغطية الأثاث ووضعتها في الغسالة، ونظفت الشاليه بمكنسة كهربائية، وخطت نحو صندوق سيارتها،

وهنا فقط طلبت المساعدة في حمل بضعة صناديق متنوعة الحجم والطاولة الجديدة، وفي إخراج منضدة مستطيلة الشكل من ركن في الشاليه، إلى الحديقة الصغيرة، وجاءت بمفرش أبيض بمربعات حمراء ومقعدي شاطئ ساعدت في حملهما، وبدأت تُخرج ما في الصناديق وتوزِّعُه على المنضدة، وجلست بارتياح.

لم يكن أحد موجودًا في القرية، على ما يبدو، أو أنني لم ألحظ أحدًا، وكنت أرمق بين الحين والآخر جانب الشاليه؛ باحثًا عن شيء يخيفني دون جدوى. كان الوقت تجاوز الظهر، ولكنه ما زال دون العصر بفسحة، ولو كنا صيفًا لكانت الشمس الآن في سُرَّة السماء، ولكن الشمس على سطوعها الباهر لم تكن حامية. ولأن الشمس لم تقطع بعدُ شوطا في رحلتها نحو الغرب، كانت الظلال على المائدة والمقعدين شبه رأسية، واقترحت آلاء أن نأتي بالشمسية من الداخل لنصنع ظلًّا، بينما كان الهواء محايدًا في حرارته، ومتحركًا بما يكفي لتقليب أطراف المفرش. قالت لي إن الجو يكون هكذا في منتصف مارس، وإذا لم يكن الربيع في مارس فمتى يكون؟! وقالت إن الربيع العربي فقط هو الذي يكون في يناير.

كانت تتحدث من داخل الشاليه، ثم أتت بطلَّة منزلية، بخلاف ما كانت ترتديه من بدلة جينز عملية تناسب مهندسة ديكور. الآن هي بفستانها الأزرق ذي النقط البيضاء الصغيرة على شكل نجمة.

الفستان فضفاض وطويل ولكنه مرفوع بحمالتين كخيطين رفيعين، ويكشف منبت ثدييها البارزين بصلابة مع ثنيات الفستان العلوية، ومرت بيديها لجمع شعرها المنسدل وإلقائه خلف ظهرها، وهي تطالبني بالدخول مثلها، وارتداء الملابس الخفيفة، التي حملتها معي في حقيبة صغيرة من القاهرة. عاينت في عجالة نصف شاليه صغير، منظم، ويليق بمهندسة ديكور، ولما عدت بشورت أزرق وتي شيرت أبيض، وجدتها أشعلت سيجارة، وصبت كأسين من البيرة، واكتملت عندي، وربما عندها أيضًا، صورة حبيبين يمضيان وقتًا على البحر وحدهما، ويختلسان لحظات مسحوقة من بين أنياب الزمن. ونظر كل منا إلى الآخر بحنان بالغ، وشعرت في هذه اللحظة بالذات بأنني أعشق هذه السيدة التي تمتلك نصف الحقيقة، وتمنيت أن أكون النصف الآخر. وتحركت فيَّ الغريزة، في الوقت الذي شعرت فيه بأنني في مكان لا يعرف أحد في العالم أنني موجود فيه الآن؛ وكأنه أصبح سري الخاص، وكان أول ما فعلته أنني أغلقت الموبايل، وسعدت بالاختفاء..

وبعد الغداء المبكر مثل الأوروبيين والفلاحين في قرية أبي، قلت لها إن الصورة كانت لتكتمل بشيشة، فوافقتني وردت بأن معها ما هو أفضل. قامت وجمعنا بقايا الغداء وأدخلناه مطبخ الشاليه الصغير، وهناك تفاديت كرجل متحضر الاحتكاك بجسدها، وكان

متاحًا، وعدنا إلى الخارج، وعدلتْ وضع الشمسية في محاولة لوضع الظلال فوق المقعدين، وجلست مخرجة علبة سجائرها، وفضَّت ورق سيجارتين ودعكت الدخان بأصابعها، وأخرجت من حقيبة يدها قطعة حشيش صغيرة، وفركتها على الدخان، وأعادت لف السيجارتين، ولم تفارقها الابتسامة واختلاس النظر إليّ في استمتاع بتأثير ما اعتبرته مفاجأة، وكانت مفاجأة فعلية إلا أنها صغرت في سيل المفاجآت اليوم. وضعت السيجارتين بجوار الطاولة، ثم مدت لي سيجارة منهما وولاعة، أشعلت سيجارتي وأعدت لها الولاعة، وعندما أشعلت سيجارتها وأخذت نفسًا عميقًا، كان للتدخين متعة أكبر مع سحابات الدخان المنطلقة من فمها وأنفها، وأصبحت بالنسبة لي مشتهاة أكثر من أية لحظة سابقة.

هزمتها في العَشَرَة الأولى بصعوبة، ولو كانت أكثر خبرة لأخذت مني العَشَرَة؛ لأنني ببساطة فقدت تركيزي الذي كان منشغلاً بأنوثة طاغية تجلس أمامي، متاحة، ومشتهاة، في أفضل مكان وظروف يمكن أن تجمع رجلًا وامرأة في العالم، ولم أعرف كيف أبدأ. كعادتها قالت لي: اطلب. لم يكن أخلاقيًا أن أطلب ما أريده بالفعل، ولذلك دخلت في لعبتها بطلب معرفة ما يحدث بالضبط في الخلوة؛ فأغلقت الطاولة واستندت إليها، ثم عادت إلى الوراء وشرعت في لف سيجارتين جديدتين.

وحكت لي أنها بدأت قبل سبعة عشر عامًا، فقد رأت رؤيا بعد عودتها مع الأسرة إلى الرياض وانفصالها عن خطيبها الأول، وكانت شديدة الحزن عندما سُئلت في المنام أن تطلب زيارة، فاختارت السيدة نفيسة، فذهبت، وانفتح لها المقام. وفي أول إجازة صيف كانت أمام المسجد، ودلفت بمساعدة أحدهم إلى المقام، ورأت ما شاهدته سابقًا في الحلم.

سألتها عن شيخها فقالت: إنهم شيوخ، قيادة روحية تأتي في رسائل، في لقاء بشر مرشدين، وإشارات، تبادل وترتيب مواعيد، والأمر ليس في أيدينا، نلتقي ونعرف بعضنا بعضًا، ونبتسم لبعضنا إذا التقينا في الشارع. وهذه اللقاءات ليست مصادفة، الظروف ليست صدفة، ولك في كل مرحلة تقدير، يرتفع تقديرك مع قدرتك على الصبر والاستمرارية، وتعرف مقام غيرك ومقامك، سلسلة بلا نهاية من المؤمنين.

قالت: إن الأمر له علاقة بالفطرة، وأنا ابنة عشرة أشهر بالتمام والكمال، وكل شيخ قابلته له جزئية محددة هو ضليع فيها، وعندما دخلت في المحن التي مرت بي طُولبت في الرؤيا بالصبر حتى ألتقي مفتاح الفرج، وأُبلغت بأنني سأكون في ضيق فضيق إلى ضيق حتى الفرج. كان أول تلامس روحاني معي ترك خطيبي لي لأسباب واهية، لها علاقة بترتيبات بيت الزوجية، أسباب مادية لم تكن في الحسبان، فلا أسرته ولا أسرتي كانت تنقصها الأموال،

ولكنها الأسباب. وفي حادث السيارة نجوت من الموت بأعجوبة، كنت في طريق شبه مهجور في تفريعة فوق المنصورية، وكان الوقت ليلًا، وأُغمي عليّ، ولكنني في الرؤيا شاهدت رجلًا يقف على جانب الطريق ويتصل بالإسعاف، وعندما كنت داخل سيارة الإسعاف سمعتهم يقولون إن عمرًا جديدًا كُتب لي، ولم يعرفوا المتصل مطلقًا؛ لكنني كنت أعرفه، وكنت أراه كثيرا في مناماتي، لم يكن حادث سير إنما دخلت بمقدمة السيارة في سور أسمنتي في الجزء المظلم من الطريق.

وواصلت القول مشدودة ومرهقة، إن الانفصال كان نقلةً نوعيةً بالنسبة لها، وكان أول اختبار روحاني حقيقي تصادفه، أسبوعان أمضتهما في مستشفى الهرم: ما إن أخرج من عملية حتى أدخل في الثانية.

أما الأيام الخمسة الأخيرة في المستشفى فكنت أرى في المنام الرجل الذي أبلغ الإسعاف بالحادث يأخذ بيدي، ويتركني على باب غرفة، حيث أرى بوضوح زوجي أو طليقي الآن يتعذب تحت من هو جاثم فوقه، ويطبق أصابعه على رقبته، ويُخيِّره بين الاستمرار في هذا الوضع من دون موتٍ أو حياةٍ، أو إلقاء نفسه من النافذة، أو الخنق المتصل، أو الانتحار. كلُ شيءٍ في أسبوعَيِ المستشفى كان يحدث أولًا في الرؤيا، تشاهد كل ما يجري، ويقال لها كيفية تفادي ما يؤذيها، وكيفية التصرف حيال أي أمر..

قالت: نومي رسائل ورحلات، أنا لا أنام أبدا، وأمضي في نومي كما في يقظتي.. نومي استكمال، ويقظتي تحقق، وكما قلت لك لي شيوخ وليس شيخًا واحدًا، لكنني أعتبرهم واحدًا..

لاحظتْ استغرابي، فأكدت لي أن الروحانية علم، وفيها ثماني طرق ومثلها الأقطاب، وهي موجودة من قديم الأزل، واليهود حافظوا عليها منذ مزامير داوود، وكما ترى هم قلة ولكنهم يسيطرون على العالم الآن، أما نحن فقد نسينا إرث أجدادنا في الروحانية، الطويل الممتد من الفراعنة حتى سنة ألف هجرية.

توقفت عن إلقاء الأسئلة مدهوشًا وغير مصدق، وربما تكون لاحظت أنني فقدت المتابعة، وأحاول تمثيل العكس؛ لأن روحي كانت هناك تتابع حركات جسدها الملازمة للحديث أكثر من الحديث نفسه. ويبدو أنها قررت إنهاء الشرح بأن تلفت نظري إلى أن مصر أوقفت تدريس العلم الروحاني منذ الثلاثينيات؛ ظنًّا منها أنها قد تعيش بسلام، وأن أمريكا أخذت هذا العلم، ومنعته عنَّا، ودرَّسته، وطوَّرته، وحوَّلته إلى علم «الباراسيكولوجي»، وبدأت تستخدمه، وأنجزت بسببه طرق الاستشعار والتحكم عن بُعد.

مع دخول الجهة الغربية في الاحمرار، مع اسوداد الشرق، أحاطنا هواء بارد حاول الإطاحة بالأشياء التي فوق المنضدة، فقمنا نجمعها بسرعة، وأدخلناها الشاليه؛ للخروج من جو الروحانية

الذي تلاطمت فيه روحي من دون قدرةٍ على الفهم، ولكن أيضًا من دون مللٍ، لأنني بطبعي أُحبُّ الغموضَ والسريةَ، ولا أحتقر شيئًا ما دام هناك من يحترمه ويعتقده.

سألتها عن سبب المشكلات مع طليقها، فقالت إنه لم يكن رجلًا بالمعنى الجنسي للكلمة، ولم يكن يحب النساء، ولكنه أراد استكمال الشكل الاجتماعي، وإنها منذ عرفت ذلك في الأيام الأولى من الزواج جُنَّ جُنونها، ودخلت في عَشَرة أشهر أخرى مساوية للأشهر التي أمضتها في رحم أمها؛ مساويةً في الزمن فقط، لأنها كانت إقامة في الجحيم. وهي تطحن أقل من نصف سيجارة بحذائها رغم وجود منفضة سجائر، اقترحت دخول الشاليه، والاستعداد للعودة..

كان كل ما سمعته يشوشني، ولكنه يتراجع في الوقت نفسه في رأسي؛ ليتقدم هاجس واحد، وهو رغبتي في النوم مع آلاء وسط هذا الارتباك والشاعرية والسرية والإتاحة. وبعد أن أدخلنا المنضدة والمقعدين والشَّمسية داخل الشاليه، بدت كمن تجاوبت مع رغبتي، لأجدها وقد تخلَّت بسرعةٍ عن غضبها وتشجعني بنظرة تخلت فيها أيضًا عن الثقة التي تطبع نظراتها، لتصبح أنثى في النهاية، تستطيع أن ترغب، وتستمتع بأن تكون مرغوبةً، وأن تتأكد من ذلك. واقتربت منها وأمسكت بيدها فقالت مازحة إنها لا تريد أن تعبر الشارع. فقبلتها من دون نهم، واحتضنتها، بينما ما زال ضوءٌ شبحيٌّ

مائلٌ للاحمرار يأتي من النافذة البحرية الغربية للشاليه، ويحولنا إلى طيفين أسودين متماثلين في الطول وملتحمين وذوَي حركة بطيئة، ورغم ذلك تجنبت كل ما يمكن أن يفسد الحالة، خصوصًا أنني كنت في شوقٍ بالغ لأتحسس مناطق العمليات الجراحية جراء الحادث في نصفها الأسفل؛ ولا أدري كيف أدركت رغبتي وسحبت يدي لألمس أعلى ركبتها اليسرى، لأجد شقًّا طويلاً في الجلد له ملمس آخر، جاف وخشن.

وفي السيارة العائدة في الطريق المظلم، درت بأسئلة حول سنة التخرج؛ لأقترب من عمرها، لكي أحصل على ما يكفي من معلوماتٍ، لأعرف أنني أكبرها بعشر سنوات. أنا الكَهْلُ على عتبة الخمسين، بينما يمحق هذا العقد الفارق كوننا، كما اكتشفت ولأسباب مختلفة، نحب الأشياء نفسها، فكم كانت سعيدة بالاختفاء، وكم كنت وَلِعًا بمعرفة الأسرار.

5

اختار أو أُجبر عاطف على السكن في الرحاب، خارج القاهرة بنحو أربعين كيلومترًا، على اعتبار أنها منطقة جافة قريبة من القاهرة، وافتقد سكن المنيل الذي كان يربطه بمسقط رأسه القريب في الجيزة وإلى الأبد، ثم اختار أو أُجبر مرةً أخرى على نقل مكتبه لتشغيل المصريين في الخارج من شارع الجمهورية إلى منطقة السبع عمارات في ألماظة، القريبة من منزله الجديد. وفوجئتُ يومًا باتصال زوجته الجديدة منال بي لإبلاغي بأن عاطف سيموت نهاية الشَّهر، كما قال له الأطباء، إن لم يُجرِ جراحةً ثانيةً في القلب.

كان عاطف، ولأسباب غير معروفة، يعاني الكثير من الأمراض، كنا نعرف منها القلب، وعدم قدرته على الإنجاب، إن كان ذلك مرضًا، وكنا نلاحظ إفراطه في علاقاته الجنسية داخل مؤسسة الزواج وخارجها، في محاولة لإثبات العكس للآخرين، وليس لمجموعتنا، فلم يكن لدينا أدنى شك في هذه القدرات، هو الذي عرَّفنا مبكرًا على العادة السرية، والتحرُّش، وطرق صيد الفتيات. واعتبر بعضنا أن مرض القلب ناجم عن كل ذلك، ورفض آخرون

الربط بينهما. والحقيقة أن قلبه صبر طويلًا، وظهر مرض عدم قدرته على الإنجاب مع الزوجة الأولى، وأخذ الأمر بدعابةٍ يائسةٍ قائلاً إنه لن يحتاط بعد ذلك في أية علاقة، ورب ضارة نافعة.

تزوج عاطف مرات، من بينها فتاة تونسية، ولم تكن أية زيجة تعمر معه طويلًا، ولكنه كان يتحدث كثيرًا عن فتاة مدينة «توزر» في الجنوب التونسي بنوعٍ لافتٍ من الحنين، حتى سقط أمام مرض القلب بعد أحد الطلاقات، وقال لنا إنه كان يتمنَّى البقاء مع علياء زوجته الأخيرة. كنتُ أعرفها، وقلت له إنها أيضا كانت تتمنَّى لو استمرت معه، ولكن لو منحها طفلًا. ووصفتها بعد أن ضيفتنا أكثر من مرة أنها تريد هذا الطفل أكثر من أي شيء آخر في الدنيا، ولا أراها إلا في صُورة مريم ترضع سمكةً، وأقرني على تفسيري هذا، ولكن الطلاق وقع بعد أن بدأ يسأل عن إجراءات تبنِّي طفلٍ، وهو ما رفضته علياء لأن الإسلام لا يقر التبنِّي وأصرَّت على الطلاق الذي بدأت معه رحلة المرض الطويل.

ذهب معه صديقنا مصطفى عويس، الذي يجيد الإنجليزية، إلى كليفلاند في الولايات المتحدة الأمريكية، وأجرى هناك جراحة قلب مفتوح، وكنا مثل فريق من القردة نتحرك بإحساس واحد، وحركة واحدة بالرؤوس والأقدام، ونفرج بين شفاهنا كاشفين أسنانًا متنوعة في السوء، ونحن نجلس في «قهوة مرعي» في ميدان الجيزة، ونسمع

عن نشر القفص الصدري بالمنشار الكهربائي للوصول إلى القلب، ولو اطلع أحد علينا لوجدنا في وضعٍ مسرحيٍّ مثيرٍ للضحك بينما نسمع أشد العبارات قسوة.

ولم يستمر عاطف طويلًا في الحفاظ على سلوكيات صاحب قلب مفتوح، وعاد إلى الشَّراب والانفعال في لعب الطاولة والنساء، وتزوج مرتين. أما زوجته الأخيرة فهي التي اتصلت بي مستنجدةً. لم ألتقها من قبل وتحدثت إليّ باكيةً، بعد أن تلصَّصت على أرقام التليفونات المسجَّلة على هاتفه المحمول، والتقطت اسمي من بين أسماء ذَكَرَها أمامها مرات، باعتبارنا أصدقاء طفولة الحي القديم في الجيزة. وسألتني العودة للاتصال به مجددًا؛ لأن حالته الصحية والنفسية في غاية السوء، ودعتني إلى تذكيره بضرورة إجراء العملية، ليس فقط من أجلهما ولكن من أجل الطفل القادم، ورجتني عدم ذكر هذه المحادثة على الإطلاق، واتفقت معها على ذلك، وشعرت بصدقٍ بالغٍ في صوتها.

ولكنني توقفت طويلًا أمام الطفل القادم، وتمكن مني الذهول، ومن دون أن أتصل بأحد من مجموعة الجيزة، بادرت على الفور بإجراء مكالمة مع عاطف، على أن ألتقيه في مكتبه في السبع عمارات، وقلت له إنني تذكرته بالمصادفة، لأنني قريب من مكتبه، وأود أن أعرف إن كان مناسبًا أن أمر عليه الآن أم لا، لكنه أبلغني بأنه

في المنزل، مبديًا ترحيبًا بالزيارة الآن، وتجاوزت عن شعوري بأنه كان ترحيبًا بلا حماسة ملتمسًا له العذر، ووصف لي الطريق وأكد ضرورة دخولي من البوابة 13 القريبة من منزله.

كنت بعيدًا جدًّا في الواقع، وكنت صليت العصر، وفي طريقي من منزلي في العجوزة، إلى مكتب خالد الشيخ في شارع 26 يوليو في وسط البلد، واتصلت به لأؤجل موعدنا ولكنه أصر على توصيلي بسيارته إلى الرحاب؛ خصوصًا أنه لم يكن ينتظر أحدًا من أصحاب القضايا. أوصلني إلى الرحاب، وانتظرني ما بين المغرب والعشاء في الجامع الأحمر، على أن نعود بعد صلاة العشاء إلى العجوزة لنجلس في النادي النهري للمالية حتى ينضم إلينا كمال راشد، ثم نتوجه إلى «مقهى نور الصباح» على كورنيش الوراق.

عرفت طريق «نور الصباح» بعد أن عملت في مأمورية إمبابة في شارع الوحدة، وتعرفت فيه إلى كمال الذي كان يجلس عليه قريبًا من منزله في شارع مصنع الأبحاث المجاور لمعهد تيودور بلهارس، وليس بعيدًا في نفس الوقت عن عمله في فرع وزارة الثقافة في الكيت كات. أما خالد الذي تنحدر أسرته من ساقية مكي قريبًا من مسقط رأسي وصباي في الجيزة، فقد صاحبته في ميدان التحرير أثناء الثورة؛ حيث خيمته أسفل تمثال عمر مكرم، التي ظلت منصوبة أسبوعين، عاد بعدهما إلى مكتبه للمحاماة،

وهو في منزل متهالك في شارع 26 يوليو ولكنه يأمل أن يعود عليه بالكثير إذا ما فكرت الحكومة في إزالته، أو إذا أراد أحد المستثمرين الاستحواذ عليه.

صارحني عاطف بوضعه الصحي المتدهور وبرعبه من إجراء القلب المفتوح مرةً ثانيةً، وحدثني عن عدم تصور أحد عذابات العملية وما بعدها، وأخبرني بأنه قلق على مصير زوجته وطفله القادم، ولما لاحظ استغرابًا في تحديقي إليه أبلغني بأنها، وأومأ برأسه جهة المطبخ، أذكى من تزوجهن جميعًا، أرادت ربطي بها إلى الأبد بأن تمنحني طفلًا، وابتسم قليلًا وهو يذكرني بصوتٍ خفيضٍ بعلياء وقولي له امنحها طفلًا.

قدمت لنا منال شايًا، ونظرتُ بشكل عفوي على بطنها الصغير المتماسك والمتباهي بحمل يريد أن يجد طريقه إلى الحياة، كما صعدت بشكل عفوي أيضًا إلى وجهها الجميل الملفوف في حجاب أخضر، وتمتمت بالمشيئة حتى أتفادى حسد زوجها وصديقي المريض، الذي لا تخيب اختياراته أبدًا، ولم أعف نفسي من اللوم لإعجابي بها وسط ظروفهما المعقدة.

وبعد أن خرجت منال شرح لي أنهما دخلا في معاناةٍ طويلةٍ في عملية أطفال الأنابيب والحقن المجهري وخطواتها المعقدة، وأن الأمر لم يكن سهلًا على الإطلاق، وأنها الآن في نهاية حملها، وقد يرى الطفل أو لا يراه، ولكنه بصفةٍ عامة رتب كل شيء بحيث

لا ترى هي، إن ظلت وفية له، أو ابنه، أيامًا سوداء من تلك التي عشناها.

كانت تلك اللحظة المناسبة لإقناعه بمعاودة إجراء العملية، فسألته عما إذا كانت توجد مقاهٍ هنا لنلعب عشرة، فوافق على الفور، ونهض ليعود لي بعد لحظات؛ مستغربًا تشجيع منال له على النزول رغم حالته الصحية. في الأثناء تحدثت لخالد الذي لم يكن يعرف عاطف ولم أكن في مهمة تسمح بوجوده معنا على المقهى، بأن اللقاء سيطول قليلًا، وأنه يمكن له أن يسبقني إلى مكتبه، أو إلى نادي المالية النهري، أو أدركهما هو وكمال في «نور الصباح». فقد شرح لي عاطف أنني بإمكاني أن أستقل «باص» من هنا إلى محطة سراي القبة وأركب المترو من هناك.

وفي المترو، دعتني سيدة إلى الجلوس بعد أن رأتني متعبًا، وتحدثت معها مبررًا تعبي بخشونة الركبة، هي أيضًا تحدثت عن أنها ستدخل قريبًا مستشفى عسكريًّا لإجراء جراحتين في الركبة، بعد أن تسببت لها الخشونة التي أهملتها في قرحة، وسألتني عن العلاج الذي أتلقاه، فقلت لها إنني أضع بعض المراهم وإنني ما زلت في البداية، ويمكنني حتى الآن التعايش معها.

جلسنا على مقهى «شبابيك» في السوق بعد منزله بقليل، ولكن المشي في «الرحاب» كان متعة حقيقية، وطلبت شيشة وطاولة ولعبنا عَشَرَة؛ منتظرًا أن يتحدث معي. وبعد العَشَرَة التي هزمته فيها قال لي

عاطف؛ مستندًا بذراعيه إلى الطاولة بعد أن أغلقها، إن مزاجه سيئ وإنه يعرف أن نهايته اقتربت، والأطباء أكدوا له ذلك، وأكد لي أنه غير نادم على ما فعله في حياته، وأنه يرتِّب الآن لآخرته، متأخرًا قليلاً، ولكنه لم ينسَ الله قط، وهو واثق أن الله سيغفر له خطاياه، وقال إن أعظم آية في الوجود ويحفظها عن ظهر قلب هي ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾.

وقلت له إنني لا أعرف إذا كان تفضيل آية على آية من الإيمان، ولكنني أجد أعظم آية هي: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ بمعناها الظاهري، وأغلقها على هذا المعنى المباشر حتى لا ينفذ منها المتشددون ويوسعوا في معنى الشرك. وقلت له لا بد أن تأخذ بالأسباب وتسافر، فأكد لي أنه يسعى إلى السفر بالفعل، وتقدم بطلب تأشيرة مرفق بها إيميل من كليفلاند، ساعده فيه أحد الأطباء الشبان في معهد القلب بإمبابة. وقال لي إنه خائف، وبكى وتركته يبكي، فقد بحثت عن مناديل كلينكس، وزلزلني بطلب أن أسأل عن زوجته وطفله إذا حدث له مكروه، وأنه يخشى عليهما من جشع إخوته، ومن الطمع فيها من غيرهم. وطمأنته بأنه هو من سيتابع زوجته وطفله وليس أي أحد آخر، واتفقنا على موعد ليلة سفره، كما تحمست للمجيء إلى هنا، والذهاب معه إلى المطار، فقال لي إنه يُفَضِّل سيارةً مجهزةً طبيًّا؛ لأن السيارات العادية باتت ترهقه، كما لا يريد وداعًا حاشدًا سيصيبه قطعًا بالتشاؤم.

6

اتصل بي الأستاذ عبد الله سعيد، ودعاني إلى «زهرة الميدان» إن كان وقتي يسمح، فرحبت وذهبت إليه في اليوم نفسه، وبادرني بأن تامر زوج حفيدته شاب مسكين، وكذلك حفيدته، وأن أصعب ما يصادفه في الحياة هو الفصل بين اثنين صاحبي حق؛ وأنه لم يتمكن قط أن يكون نبي الله سليمان، الذي دعا إلى قسمة طفل لتظهر أمه الحقيقية. وقال لي إنه طلب من تامر البقاء في بيته إلى حين محاولة تدبير شقة إيجار أخرى، وإنه سيدفع لهما الإيجار إلى أن تتحسَّن الأحوال.

وسألني عما لاحظه من شغفي بالطاولة، وهززت رأسي مؤكدًا، وقلت إنه حوض سباحة مناسب للاسترخاء مما نحن فيه من أحوال.. قلت له إن الواحد منَّا يحاول طوال الوقت الهرب من الوحدة بالزواج والأطفال، وبعدها يقطع الوقت في محاولة التحايل على المسئولية، بعد أن يتأكد أنه لا مفر ولا مكان يمكن أن يذهب إليه.. فأنت سائرٌ إلى معادلةٍ حسابيةٍ من أنه إذ تسعى وتفرح لأن أولادك يكبرون فإن عمرك ينقصُ في اللحظة نفسها، فيما لم تعد تقوم بأي شيءٍ

لنفسك، سوى الأوهام الصغيرة. ضحك عبد الله وقال إنه يخشى أن يكون نقل إليَّ العدوى بحساباته ومحاولاته الدائمة تحويل العالم إلى أرقام وإلى ظاهرٍ وخفيٍّ. وسألني إن كانت الطاولة باتت من أوهامي الصغيرة هذه، فهززت رأسي بالموافقة، وتنهد قائلًا إنه لاحظ ذلك، وإنه يريد إبلاغي بأنه أجرى أبحاثًا حول الطاولة وبحث عنها في المعجم الوسيط الذي عرّفها بالنرد؛ لعبة ذات صندوق وحجارة وفصَّين وتعتمد على الحظ، وتُنْقل فيها الحجارة على حسب ما يأتي به الفَصُّ وهو الزَّهر، وأن زهْر النّرد قطعتان مكعبتان من العاج أو العظم، ولكنه الآن خفيف فهم باتوا يصنعونه من البلاستيك غالبًا، ومحفور على الأوجه الستّة لكلٍّ منهما نقط سُود من واحدةٍ إلى سِتّ.

وأكد لي ما سبق أن قاله من قبل من أن اللعبةَ فارسيةٌ نشأت في منطقة ما بين نهري دجلة والفرات، حيث نفوذ وسيطرة فارس القديمة، وانتشرت في الدولة البيزنطية التي ورثتها تركيا الآن، حتى إن أرقام الطاولة من لغتها شيش بيش ودش وجهار ودوسة وهابيك، وهذه رموز ليست عربية على الإطلاق. وقال لي الأستاذ عبد الله إن اللعبة كانت قديمًا شيئًا فاخرًا جدًّا قبل أن تصبح شعبية، ونزلت هذه الشعبية بأدوات الطاولة من العاج في الزهر إلى البلاستيك، ومن الصندوق الخشبي المزخرف بالصَّدف الفسيفسائي، إلى

صندوقٍ من خشب الأبلكاش بحواف من الخشب الأبيض، ومن الأحجار الثقيلة البيضاء والسوداء إلى بلاستيك خفيفٍ كورق الكرتون، خصوصًا في الإسكندرية وأحجارها الرديئة.. ولكن مصر كلها تلعبها الآن على المقاهي، وتسرقنا السُّنون بين دخان الشيشة والطاولة كما ترى.. وأشار بإصبعه، كما كان يفعل عندما كان مديرًا للمأمورية، مستكملًا: والعالم العربي كله يلعبها ولكن في مصر، خصوصًا في القاهرة، الأمر فيه احتفال..

وقال: نحن نحول كل شيء إلى احتفال؛ لذلك لن يترك المصريون الثورة، سيمارسونها مدةً طويلةً، ولو دون هدف، وسيبدعون في احتفالاتهم وجُمْعَاتهم ووقفاتهم، ولولا الدماء لكان الأمر أكثر مرحًا وابتهاجًا. أكد لي الأستاذ عبد الله أنه من خلال أبحاثه ودراساته المتعمقة يجد الكون كله في الطاولة؛ فالأبيض والأسود لونا القواشيط هما الليل والنهار في حياتنا، وثلاثون حجرًا عدد قواشيط الطاولة، هو عدد أيام الشهر، أما عدد خانات الطاولة فأربع وعشرون كعدد ساعات اليوم الواحد، وأن ما نطلقه على الأرقام، شيش وبيش وَيَكْ، هي أرقام فارسية مُعَرَّبة.

أذهلني عشقه للطاولة، وأن المسألة ليست فقط في التوسُّع في الأبحاث حولها، وقبل أن أجاهر بسؤاله عن توقفه عن لعبها، وعما إذا كان يراها حرامًا، وجدته ينظر إلى بعيد وهو يدخن سيجارته

السوبر، ويقول إن بعضهم يحكم على لاعب النرد بأنه كمن يغمس أصابعه في دم الخنزير ولحمه، أي يلامس الحرام، وإن ابن تيمية في كتاب «الفتاوى» يؤكد أن النرد حرام عند الأئمة الأربعة، ولكن بعض أصحاب الشافعي أجازه بغير عوض، يعني من غير نقود؛ حتى لا يكون في حكم المَيْسر، ونحن شافعيةٌ في مصر، وهذا الحكم يقنعني. فسألته مباشرةً إن كان لنا أن نلعب عَشَرَة محبوسة كما يهوى فرفض، وقال: ليس هنا، هذا مقهى للشطرنج، وسنتركه للشطرنج، وفي لقائنا المقبل سأذهب بك إلى مقهى جميل قريب من هنا لنلعب عَشَرَة، وقال: إن غالبية ما ورد في الأثر حول إنكار الطاولة واعتبارها حرامًا وأن شهادة من يلعبونها غير مقبولة في المحاكم، ضعيف الإسناد، ولكن لا تستبعد شيئًا عندما تسيطر جماعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على مصر، قد لا تجد مكانًا تلعب فيه بعد كل هذا الذي تراه.

ونظر جهة لاعبي الشطرنج، وقال: أما الشطرنج في مرجعياتهم فهو شر من النرد؛ لأنه يشغل القلب ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة أكثر من النرد، ويقولون إن الشطرنج مبني على مذهب القدر، والنرد مبني على مذهب الجبر؛ فصاحب النرد يرمي ويحسب بعد ذلك، أما صاحب الشطرنج فإنهُ يقدِّر ويُفكِّر ويحسب حسابات النقلات قبل أن يفعلها. وتلقيت اتصالًا من كمال لنجهز للسفر إلى بلبيس

للعب الطاولة مع صلاح أبو الخير، واتفق كل منا على الحصول على إجازة يوم الاثنين وسيكون معنا خالد، وهو سيد عمله؛ إذ يترك دائمًا في مكتبه زميلًا ومحامين تحت التمرين، ويجد من يرسلهم إلى المحاكم والنيابات، بينما أبو الخير يربي الخراف ولا يكون بدوره في حاجة إلى إجازة.

لعنّا - أنا وكمال - الوظيفة الحكومية التي تجبرنا على الارتباط بها إلى نهاية العمر في سبيل بضعة جنيهات، والأسوأ أنه يتحول مع الزمن إلى الشيء الوحيد الذي نجيده أو نتوهم أننا نجيده فنعلق به إلى الأبد، هكذا أسمّي سن المعاش.. الأبد، أو نهاية العمر؛ لأنه لا عمر بعده ولا فرص أخرى بعيدًا عن عيادات الأطباء ومعامل التحاليل وبينهما الفراش إذا كانت الصحة على ما يرام، ويتجسَّد أمامي حال الأستاذ عبد الله سعيد وأتساءل عما إذا كان هذا هو المشترك بيننا، وأنني لذلك أحرص على زيارته كل بضعة أسابيع، واستأذنت وأصر على دفع الحساب.

كنت في المكالمة اتفقت مع كمال على أن نلتقي في محطة مترو جمال عبد الناصر، بالقرب من مكتب خالد، وكان خالد يتحاشى في الغالب الجلوس في المقهى القريب من مكتبه حتى لا يراه أحد. والتقيت كمال في المحطة بعد أن انتظرته نحو نصف الساعة، وسألته عما إذا كان تحدث مع خالد، فقال لي إنه في المكتب، سنمر عليه وننزل معًا. استغربت كمال الذي لا يريد إجراء مكالمة هاتفية،

ومضينا نحو مكتب خالد، وانتظرناه في صالة مكتبه، وخرج إلينا بعد أن تم إبلاغه بحضورنا، بينما سبقته في الخروج امرأةٌ صغيرةٌ تحمل طفلةً، وخالد يحبو خلفها كالطفل ووجهه يكتسي بحمرةٍ شديدةٍ؛ إذ كان هناك ما يخفيه، فنظرنا أنا وكمال لبعضنا واستغربنا من أن هذه المرأة موكلة خاصة. كانت امرأةً صغيرةً تعطي انطباعًا أكيدًا كونها تنتمي إلى حي شعبي، وكان جسدها يتأرجح في فتنةٍ في عباءتها السوداء، وتابعناها بعيوننا في شبقٍ لم نكلف أنفسنا عناء مداراته، ليستردنا خالد ويدخلنا إلى مكتبه، مكررًا سعادته بالمفاجأة التي مثَّلها حضورنا.

لم نكن نُوزِّع أسرارنا، كما لم نحاول انتزاعها تحت أي فضولٍ، ولم يكن ثلاثتنا كتجمعٍ ذكوريٍّ يدورُ حول المرأة، كنا متزوجين وأكثر ما نحكيه عن بيوتنا هموم الأولاد، أو تبادل خبرات الترامادول والفايركتا وغيرهما مما نسمع. لم نكن نحكي بطولات نسائيةً إلا من الماضي، ولكن بدا خالد في ارتباكه صاحب مغامرة في الحاضر، ومع هذه المرأة الشابة تحديدًا. سألناه عما إذا كانت قضية طلاق، فقال إنها مشكلةٌ بسيطةٌ في عقد إيجار قانون جديد، وأقسم إنه لا شيء أكثر من ذلك في المسألة، وأشار إلى أن طفلتها على يدها طوال الوقت. ونزلنا لنأخذ سيارته إلى «نور الصباح»، ولأنني ركبت أولًا بجوار خالد بينما كان كمال يلف ليجلس في الخلف، قال لي خالد بسرعةٍ وهو يخفي ابتسامةً خجولًا: سأحكي لك فيما بعد.

7

ليلة السفر وعندما كُنَّا في «نور الصباح» نلعب الطاولة بحماسة ونطيح بالزهر بين أرجل رواده وتحت المقاعد، حتى إن صبي المقهى وائل أتانا بزهرين إضافيين، تلقَّى كمال مكالمة تهلل لها وجهه، فقد طلبه أحد مكاتب الكاستنج للقاء حول تمثيل إعلان. كان كمال دائما ما يجد له وسيلةً، إما عن طريق مخرجين أصدقائه في وزارة الثقافة، أو مكاتب الكاستنج للعب دور صغير في فيلم أو مسلسل، طبيب أو محامٍ، وهما الدوران اللذان التصقا به بشدة. أسهم في ذلك تكوينه الجسماني الذي يسبغ عليه شكل المثقف، وشعره الأبيض ونظارته الطبية وسحنته الجادة. وقررنا تأجيل السفر إلى بلبيس بطبيعة الحال واتصلنا بصلاح الذي تقبل التأجيل ما دام مرتبطًا بأمر يخص العمل واتفقنا على أن نتواصل حول موعدٍ جديدٍ. وبعد أن حصلنا على الإجازة لم يكن لدينا ارتباط آخر، فاقترح كمال أن نذهب معه إلى مكتب الكاستنج ونعاين هذه التجربة، وتوقع أن يكون الإعلان لمعجون أسنان.

وسألته إن كانت مكاتب الكاستنج هذه هي مكاتب الريجيسير نفسها أم أن هناك فارقًا، فأكد لي أنها نفسها ولكن لم يعد أحد يحب كلمة ريجيسير، وأن الكل يتحدث الآن عن مكاتب الكاستنج، وأن الريجيسير هو الرجل الذي يتصل بك لإبلاغك بالأدوار. وذهبنا إلى شارع أحمد عرابي في حي المهندسين، ما سيتيح لنا السهر في «نور الصباح» بعد نصف الساعة الذي سنقضيه في المكتب، ولم يكن الأمر كذلك. دخلنا ورحبوا بكمال الذي عمل معهم سابقًا، ووجدنا المكتب مزدحمًا، وتهامس كمال مع المدير وتجهم قليلاً، فلم يكن سوى مرشَّح لتصوير الإعلان وسط كل الجالسين والجالسات، ولم يكن هناك مفر من الانتظار، وجلسنا في غرفة خلفية واسعة، وبها مقعدان شاغران، بخلاف الصالة والمدخل، وشاهدت وجوهًا يبدو أنني لمحتها في التليفزيون في مسلسلات، أو إعلانات، ولكنني لم أكن متأكدًا، ودخل إلينا سكرتير المكتب وسجل أسماء وأرقام موبايلات الحاضرين، ولم أجد مشكلة في إعطائه اسمي ورقم هاتفي، وكذلك خالد. ولحقنا كمال وأبلغنا أن المسألة لن تستغرق أكثر من ساعة، واقترب منا وسأل عما إذا كنا سنعمل كاستنج، وأسعده أننا هززنا رأسينا بالموافقة. وقال إنه سيتركنا قليلًا ليتفق مع مدير المكتب على إدخالنا بسرعة لارتباطنا بموعدٍ سابقٍ، وسمعته إحداهن، ورجته إذا كان ممكنًا أن يقول إنها معنا، فوافق.

نظرت إلينا وعرَّفت نفسها بأنها سحر، وعرَّفناها بأسمائنا، وقالت إنها لم تنزل كاستنج منذ مدة تكاد تقترب من السنة ونصف السنة بسبب حملها وولادتها، وإنها تركت طفلها عند أمها، وخفَّضتْ من صوتها قليلًا ووجَّهت حديثها لخالد بأن مكتب الأنوار يطلب كاستنج بعد غد لمسلسل كبير، وعادت بعينيها إليّ لتطلب أن نتعاون ونبلغ بعضنا بأي أخبار خاصة بمكاتب الكاستنج، وأعطتنا رقم هاتفها. كان بها مسحة من جمال وبعض السمنة من دون إفراط، ورغم تداخلها معنا لم أشعر أنها جريئة وإنما تميل أكثر إلى التحفظ، مصدرةً لنا إحساسًا بالحزن وسوء الطالع، فيما بدا لي أن البحث عن عمل كان الدافع لكي تتجرأ وتتحدث معنا، وكان بها بعض الارتباك وهي تطلب من كمال الادعاء بأنها معنا. دخل كمال أولًا وصوَّر مشهدًا كاختبار وجلس بجوارنا وطمأن سحر، ثم ضحك وقال: لم يكن إعلان معجون أسنان، وكتم أي تطور محتمل لضحكته، وقال: إنه إعلان عن معجون حائط.

ثم نودي على اسمي واسم سحر، ودخلنا معًا غرفة التصوير، وصافحتنا بترحاب من قدمت نفسها على أنها أميرة المخرجة، كما صافحنا حسام المصور، وراحت الحماسة ليحل محلها الارتباك، وتقدم منا عمر مساعد المخرج ليسأل، وأميرة تدون في أوراقها، عن اسمي وهاتفي وعما إذا كنت مثلت قبل ذلك. لم أمثل قبل ذلك، وتحدثتْ سحر عن إعلان جبن أبيض وإعلان ثانٍ قديم عن

السمن شاركت فيهما. مرة أخيرة ابتسمت أميرة بود وأكدت لي ضرورة أن أكون طبيعيًّا ويبدو أنها لاحظت ارتباكي، ولم أكن أشعر بأي ارتباك، أنا الزائر لهذه الأجواء وليس لي فيها أمل ولا ينبغي أن يكون، إن الأمر كله كعشرة طاولة مع غريبٍ في بلدة غريبةٍ، بعدها سيمضي كل منا إلى حال سبيله، وأصررتُ في داخلي على أن أكون عفويًّا، وأن أذهلهم، أنا الذي لن يروه ثانيةً أبدًا.

طلبت مني المخرجة أن أجلس وأشاهد اثنين آخرين في نهاية الغرفة يؤديان المشهد، وجلست في تركيزٍ شديدٍ لأسمع تعليمات عمر، وأداء اثنين مخطوبين يجلسان لتناول العشاء في منزلهما تحت أضواء الشموع، وتم إغلاق الأضواء الخلفية والجانبية ولم يعد في المدى سوى ضوء مركَّز على المائدة، وسحرني المشهد، كأنني أصبحت جزءًا من شريطٍ مصورٍ على رغم وجودي بعدُ خلف الكاميرا ومع عددٍ غير قليلٍ من الناس الذين يتابعون ويكتبون ملاحظات، بينما أنا أتابع المشهد وأتابعهم.

صفق الموجودون وصفقت معهم، فالمخطوبان وهما يجلسان لتناول العشاء في بيتهما تحت التشطيب، ظهر لهما فجأة عامل طلاء يسألهما عن ألوان الحوائط وعلى مضضٍ يطلبان منه أن يسرع في اقتراح بعض الألوان، فيتحدث عن الفوشيا والبيج والكافيه كأنه يشد الألوان من السماء كما طلب منه عمر، فيختار الخطيبان حبهما وأي لون من هذه الشركة تحديدًا؛ لأن ألوانها هي ألوان الفرح.

وتقدمت أنا وسحر لنجلس، ولم أعد أشعر بجسمي، فقط علبة صغيرة في الرأس مرتبطة بعينين اثنتين هما كل ما أحس بوجوده، وسيطرت عليّ رغبة عدم الفشل، وأكدت لنفسي أنني لن أمثل الإعلان حتى لو عرضوا عليَّ مال الدنيا؛ لأنني في النهاية موظف محترم، فماذا أقول لرؤسائي؟! والأهم ماذا أقول لأولادي وجيراني؟! ففيم التوتر؟ وقررت الاستمتاع وجرت دماء كثيرة في رأسي. وقفت بجوار سحر، وبدأت التمثيل فورًا، إذ أشرت إلى الكرسي الذي ستجلس عليه ولم أجلس قبلها قط.. ثم بدأ التصوير ولم نكن بحاجة إلى إشعال الشموع لأنها مشتعلة منذ بدأ اختبار الكاستنج وكادت تختفي، ولامست يدها كما طلب عمر ونظرت في عينيها بقوةٍ ومن دون أي حرج، وهي بادلتني النظرةَ نفسها، وقلت لها إن عشنا الصغير سيكون جاهزًا قريبًا، وكان المفترض أن أقول إن شقتنا ستكون جاهزة قريبًا، وردت بأنها سعيدة لأن الحلم سيصبح حقيقة أخيرًا، هي حفظت الجملة من عمر ومن المشهد السابق.. كنت أضغط على يدها بحنان كخطة المشهد ولكنني أحسست بإثارة رغم كل الموجودين، وفجأة ظهر عامل الطلاء ليسألني عن اللون المطلوب، وكان من المفترض أن أترك يدها مع ظهور العامل، ولكنني لم أفعل ويبدو أنها لم تحاول جذبها، ليس غرامًا بي، ولكن يبدو أنها قدرت أن سحب اليد بقوة سوف يتسبب في مشكلةٍ ما، واستدارت لنكون متوجهَين معًا نحو العامل ونسأل عن الألوان التي يقترحها ولم أستدر مُعلقًا بعينيها ومسحورًا.

وينتهي المشهد، ويسحب كلانا يده من الآخر ببطء؛ لأسمع تصفيقًا لم أحصل عليه في حياتي منذ الصف السادس الابتدائي في مدرسة أبو الهول القومية المشتركة، عندما حددت على الخريطة ومن دون تردد مكان صنعاء، وطلبت الأستاذة عواطف من الفصل كله التصفيق لي.

تصفيق مدوٍّ حصلت عليه في حياتي القصيرة في التمثيل، التي لم تستغرق أكثر من دقيقةٍ واحدةٍ، وخرجت منتشيًا على وقع جملة سمعتها عن أنني طبيعي ومقنع؛ مشفوعة بمصافحات ودية من فريق العمل بأنهم سيتصلون بنا إذا ما تم اختيارنا. وخلال اختبارٍ سريعٍ لخالد في دور عامل الطلاء مع مخطوبين آخرين، طلبنا من سحر الانتظار لتوصيلها إلى بيتها في المريوطية، هي التي لم تصدق قط أنني أمثل للمرة الأولى في حياتي..

8

حددنا موعدًا آخر للسفر إلى بلبيس، ولكن حدث ما جعلنا نتشاءم من هذه الرحلة؛ فقد اتصل صلاح أبو الخير قبل الموعد بيومين فقط ليخبرنا بوفاة شقيقة زوجته في بورسعيد، السيدة التي ظلت مريضةً سنوات، وكانت شديدة الارتباط بالسيدة زوجة صلاح، ولما طلبنا منه المشاركة في العزاء قال إن العزاء تم على رأس المقبرة كعادة أهل زوجته.

وإذ تجاوزت التشاؤم بسرعة فقد استدعى نبأ الوفاة الأحزان في نفسي وكل الطرق التي أبلغت بها بوفاة أقارب وأصدقاء وزملاء عمل وجيران.. كان الأمر نفسه والصعوبة ذاتها والحزن البالغ، تذكرتهم جميعًا، فالموت عندي هو عذاب الأحياء بقدر ما الحياة إذا كان الموتى يشعرون هي عذابهم، كما الصحة عذاب المرضى والمرض عذاب الأصحاء من أصحاب الضمائر. شعرت بحنينٍ جارفٍ تجاه عمر ومنصور اللذين وددت لو أنهما كانا حَيَّين في مواقف كثيرة، وهذا الشعور كان الأجمل، فموتهما كان أجمل من حياةٍ عاش فيها بقية أصدقائي لأنهم تغيروا جميعًا، بينما عمر ومنصور لم يتغيرا قط، فهما قد ماتا، ومنعهما الموت من التغير

الذي جرى للباقين، فافتقدهما بحالتهما التي كانا عليها، وأحبهما كثيرًا.

وكأن الموت يجر زبائنه، فقد اتصلت بي منال لتبلغني بأن عاطف قد مات متجاوزًا الشهر الذي حدده الأطباء ببضعة أيام؛ وقالت إنه كان منتهيًا وهم يعرفون، وهو يعرف؛ لذلك رفض السفر. ولم تكن منال تعرف أن عاطف غيَّر موقفه من عدم السفر بعد لقائنا الأخير، وأنه تقدم بطلب تأشيرة للسفارة الأمريكية ولم يحصل عليها، كما اتصل بمصطفى عويس في لوس أنجلوس بكاليفورنيا، ولم يلمس منه استعدادًا جديًّا لترك الساحل الغربي للولايات المتحدة الأمريكية والسفر إلى أوهايو في الشرق، وترك عمله وزوجته، وأكد له أن الأمور أكثر تعقيدًا في الولايات المتحدة الأمريكية. لم يتذكر مصطفى عويس، أو هو يتذكر، لا فرق، أن رحلته مع عاطف إلى كليفلاند بالذات هي التي حققت له كل أحلامه، لقد فعل كل شيء واشتغل في كل عمل يمكِّنه من لقاء الأجانب والأمريكيين تحديدًا لكي يتزوج أمريكية، ويترك مصر بتذكرة ذهاب فقط. بينما أتاح له السفر مرافقًا عاطف تذكرة ذهاب وعودة وإقامة شرعية طوال فترة العملية، وفي المستشفى تزوج من نانسي الممرضة من لوس أنجلوس التي كان عليها أن تتابع عاطف بعد العملية، وتتفاهم معه من خلال ترجمة مصطفى، وترك له عاطف ألفي دولار قبل عودته إلى القاهرة.

وطوال فترة محاولة عاطف العودة إلى كليفلاند لم ألحظ اتصال أحد به من مجموعة الجيزة القديمة، وملأتني زوجتي فاطمة ربما بالوهم أو الترضية، عندما قالت لي إنني أكثر وفاءً منهم وإن الله لن يخذلني لسؤالي عن المريض، ولم أكن أفكر هكذا، فقد كنت يائسًا تمامًا من وجود أصدقاء. وذهبنا إلى العزاء في الحامدية الشاذلية قريبًا من منزل أسرته بعد أن انتقلت من الجيزة إلى المهندسين، وليس في «الرحاب» التي لا يعرفون فيها أحدًا، وأصر كمال وخالد على الحضور وهما لا يعرفان عاطف، وهناك التقيت مجموعة الجيزة، واتفقنا على أن نلتقي قريبًا لنعيد أيام الخميس في قهوة «مرعي»، وهو ما لم يحدث، وذهبت في ختام التلاوة الأخيرة لأُعزِّي منال على باب قاعة عزاء السيدات، وصافحتني باكيةً، وكانت في سوادها وحزنها وشحوبها كلوحةٍ مرسومةٍ تعبر عن الدنيا في كل جزئيةٍ فيها من بياض الوجه لسواد الملابس، ومن الأمل القادم من رحمها إلى الخوف الكامن في عينيها. قالت كلامًا مؤثرًا عن حياةٍ قصيرةٍ مع عاطف لن تعود، وأن أحلامها ورغبتها في الحياة ماتت معه، وأنها تتمنَّى أن يقدرها الله على أن تجعل ابنه القادم كل أحلامها وملاكها وأملها.

وقهرت دموعًا كادت تسيل من عيني وانصرفت من أمامها.. وبعد أن استدرتُ عائدًا إلى سيارة خالد لُمت نفسي مرةً أخرى على أنني كتمتُ دموعي، وأيضًا على الإثارة التي غطَّت جسدي

كله بسبب رؤيتي لجمالها الفاتن في حُزنه وقلقه البادين، وعلى ما داخلني من إثارةٍ وهي تطلب مني ألا أغيب في السؤال. كانت رغبةً شيطانيةً بالكامل ولو ملكت أن أفعل كالشيعة في احتفالاتهم في ذكرى الحسين لأنقي دمي بإهدار بعضه من هذه الرغبة الملعونة لفعلت، وحسمتُ أمري بأنني لن أتصل بها، وأنه يجدر بي أن أطمئن من بعيدٍ عبر أي صديق. وآمنت بالأقنعة المحايدة التي يرتديها رواد حفلٍ تنكريٍّ في الأفلام القديمة، وتمنيتُ أن أضع أحدها على وجهي ورغباتي للأبد.

توجهنا إلى «نور الصباح» في الوراق رغم تأخر الوقت، وجلسنا نلعب صامتين، وكنت أسحب أنفاس الشيشة باعتياديةٍ مفرطةٍ وهزمني كمال، وكانت أم كلثوم تغني «أهل الهوى» من راديو المقهى. ويبدو أن صوت أم كلثوم والعدد القليل من الزبائن في المقهى دفعا منضدةً مجاورةً التف حولها عدد من رواد المقهى إلى أن يشاهدوا عَشَرَة الطاولة ويغنوا للمهزوم مع كل رمية زهر: دورجي دورجي اوعى يجيلك دورجي.. جرسة وفضيحة.. دبش يا حبيبي دبش..

وجاءني اتصال من مكتب كاستنج أحمد عرابي ليخبرني باختياري لدور رئيسي في إعلان «بنك الطعام» ويطلب مقاساتي لتفصيل الملابس لأن التصوير بعد يومين فقط. فوجئت بانقلاب

التسلية إلى موقفٍ جاد لم أضعه في حسباني قط، وشجعني كل من كمال وخالد على القبول فورًا، فقلت لهما لا بد من التفكير، فالأمر ليس بهذه البساطة، وإنه لا بد لي من سؤال زوجتي، وشرحت لكمال أنني أحتاج إلى التفكير، ليس بسبب عدم الاحترام، ولكن لأنه ليس عملي ولا طريقي.

كما أنني فكرت في سحر شريكتي في الاختبار وعما إذا كانت مثلت إعلان الدهانات أم جاءها إعلان آخر مثلما حدث معي، وكان الوقت متأخرًا فلم أستطع مكالمتها. وعدت إلى المنزل ورفضت زوجتي فاطمة بشدة موضوع الإعلان؛ لأنه قد يجلب الشهرة الوقتية ولكنه قد يجلب أيضًا عارًا طويلًا، خصوصًا لأولادنا. وقالت لي إن إحدى زميلاتها في المدرسة قدمت والدتها إعلان سمن وأبلغت الفصل كله ليشاهدوه، ولكن بعد أيام بدأت كل واحدة منا تناديها باسم نوع من السمن وبات المزاح مؤذيًا، حتى إن المديرة لم ترحمها عندما اشتكت، وقالت لها أن تبلغ والدتها بالتوقف عن عمل الإعلانات الراقصة. كان منطق زوجتي الموظفة في التأمينات جليًّا، وشعرت بالراحة لتفسيرها، أنا الذي لم يسعدني الاتصال التليفوني من مكتب الكاستنج إنما أصابني بقشعريرة خوفٍ، ولكنَّني كنت أنتظر أيضًا لقاء الأستاذ عبد الله. وبعد أن فرغت فاطمة من النصيحة غمزت إلى الوقت المتوافر لي

لكي أقوم بمغامرات من نوع الخضوع لاختبار تمثيل، وبتُّ على غضب منها في أنني أستأثر بالوقت لنفسي وأسف مني لأني حكيت ما جرى، ولكي أُغيِّر الموضوع حدثتها عن وفاة عاطف، وسألتني عما إذا كان من الواجب أن تُعزِّي زوجته، فقلت لها سنطلبها في التليفون لتعزيها، وذلك تفاديًا لأزمة ستحدث قطعًا بعد أن ترى منال في وضعيتها الجديدة كأرملة شابة ثرية وطافحة بالأنوثة، وينقلب تعاطفها إلى غيرة حارقة.

ولم أنَم ليلتها جيدًا بعد أن أرَّقني التفكير فيما يجري، وعما إذا كان الإعلان فرصةً سانحةً لتغيير مسار حياتي، فلم أحب الضرائب في يوم من الأيام، وطالما حلمت بتغيير عملي أو فتح مشروع خاص دون أملٍ..

وفي الصباح اتصلت بالأستاذ عبد الله سعيد، وطلبت أن ألتقيه لأمر مهم ولم أعطه فكرةً مسبقةً، ولكنه رحب فورًا باللقاء، وسألته عما إذا كنت سأشغل وقته، فقال لي إنه لم يعد يملك سوى الوقت، واتفقنا على اللقاء في ميدان لاظوغلي بعد صلاة العصر حسب رغبتي، ثم نحدد وجهتنا، وكنت قررت ألا أمر بالمنزل في العجوزة، وأن أتناول ساندويتشات من مطعم «طازة» في شارع التحرير بالدقي.

9

في جلستنا أنا والأستاذ عبد الله سعيد على مقهى «ندوة العجمي» في شارع خيرت في لاظوغلي، الذي يعوضه عن «قهوة المالية» التي تناوبت عليها الأنشطة قبل أن تُغْلق، بادرني بالقول: لم أسمع نصيحتك بالدخول إلى عالم «الفيس بوك» رغم إحساسي بصدقك في النصيحة، والآن يشغلني الرعب من «الزهايمر»، وتسيطر عليَّ الكآبة من نسيان مكان علبة سجائري أو نظارتي، مع أنها أشياء كانت تحدث في الماضي ولا تزعجني.

طمأنته بأن «الزهايمر» قد يكون مرتبطًا بتقدم العمر، ولكنه ليس شرطًا. وقلت له إن والدي مات وعمره ثلاثة وتسعون عامًا ولم ينسَ شيئًا على الإطلاق، وكانت حياته في يديه، وكان يحفظ مرثيات محمود سامي البارودي في زوجته، وهذا ربما نظرًا لوفاة أمي قبل أبي بثلاث سنوات سيطر فيها رب السيف والقلم على أركان المنزل.. وأتذكر:

لو كان هذا الموتُ يقبلُ فديةً ... للنفس عنكَ لكنتُ أول فادِ

فلحقني الأستاذ عبد الله بالبيت الذي يليه:

لكنَّها الأقدارُ ليس بناجعٍ فيها سوى التسليمِ والإخلادِ

لم يكن مزاجه على ما يرام، وسألني عما إذا كان هناك شيء وراء طلب اللقاء، مؤكدًا أنه يرحب بي على الدوام ومن دون إبداء الأسباب، ولكنه يسأل فقط. فحكيت له ما حدث في الكاستنج بالمصادفة، ثم أن يتم اختياري بينما كنت الوحيد من بين من اختُبروا غير الراغب في الإعلان. قال الأستاذ عبد الله إن كل شيء موجَّه لغايةٍ محددةٍ ليس فيها سوى التسليم والإخلاد. فأدهشني ولاحظ ذلك، ولكنه واصل حديثه بعد أن تفحصني، بأنه لا يقصد الموافقة على تصويري الإعلان، وإنما يتحدث عن أنه سائر إلى غيري كقدر لا هروب منه. وطلب مني أن أظل على مزاحي، وألا أحول المسألة إلى شيء جاد أبدًا، ونظر في عيني جيدًا، وقال: رغم أن الوظيفة خسرتنا فلا تخسرها أنت، سيأتيك من وراء الإعلان الكثير من الحسد والحقد والنميمة واتهامات بالفساد وسيدّعون عليك أنك استغللت وظيفتك في جلب الإعلان، وفي إنشاء صداقات غير بريئة. وتذكرت النور محمد وقررت عدم الجلوس معه على المقهى ثانية أو أن تقتصر المسألة على اتصال تليفوني على فترات متقطعة، ولكني لم أبلغ الأستاذ عبد الله بشيء من هذا، حتمًا سأتلقَّى لومه.

وسألني عما إذا كنت أشاهد الإعلانات في التليفزيون، فقلت له نعم وسط البرامج والمسلسلات وفي تليفزيون المقهى، فعاد وسألني عن رأيي فيها، فاستغربت وقلت له إنها أصبحت ظريفة وغير مملة إلا في كثرتها. فأخرج علبة سجائره الكليوباترا السوبر وتسرَّب لي شعور بأنه الوحيد الذي يدخنها، أو أن الشركة ستوقف خط إنتاجها إذا انتقل الأستاذ عبد الله إلى جوار ربه. نفث الدخان بعيدًا وقال إنه يدعوني للتأمل في الإعلانات؛ لأنه سبقني إلى ذلك وقام بعمل أبحاث حولها، وأكد أنها مرتبطة بأحوال البلد، وأكد لي أن هناك جماعات متعددة الجنسيات لا تعد الماسونية معها شيئًا، فقد فاقتها تأثيرًا، وأنها ترصد أموالاً ضخمةً للترويج، ليس للإعلان فحسب، وإنما لرسائل سياسية، وتثبيت أنماط مجتمعية، وسلوكيات محددة. وقال إن المال يدور في بنيةٍ بنكيةٍ شديدةِ التعقيد تبدو وكأنها ليس لها صاحب ولا نهاية، ويعمل بها آلاف البشر، من أول ضوء للنهار في نيوزيلاندا حتى مغرب الشمس الذي وصل إليه ذو القرنين. تُحدد لك هذه الشركات ماذا تأكل وماذا تلبس وماذا تفضِّل وليس أنت الذي تحدد هذه الأشياء.

انتهى هذا الزمن الذي تحدد أنت ما تفضله. هذا ليس زمن المشتري بل زمن البائع، وبالأحرى زمن المُروِّج للسلع، وحتى ليس السلع نفسها. ابني وليد يشاهد القمر الأوروبي، وأطلعني

على الإعلانات في النسخ الأصلية لها. نحن نترجم فقط.. ثم إن هذه الإعلانات كان لها دور محرك في قيام الربيع العربي، وما تلاه من فوضى. وتوصلت في حساباتي المعقدة إلى أن أحداث استاد بورسعيد في مباراة كرة القدم بين الأهلي والمصري، التي سقط خلالها أكثر من سبعين شهيدًا، حركتها كلمة سر في إعلان «ولعها» الخاص بنوع من شيبسي عالمي اسمه «ليون»، ولدينا إعلان مياه غازية ماركة شهيرة عالمية «سفن آب» ورسالته عن عمليات انتحارية إرهابية في مصر، وقبلها إعلان شركة «كوكاكولا» وشعاره «اتجنن»، ولعلك تتذكر إعلان «اشتغل شغلتك واحنا ح نمولك»، وغيرها. قال الأستاذ عبد الله إنه لا يخترع، فبعضهم كتب في الصحف، وأحدهم سمعه يتحدث في التليفزيون في إحدى القنوات عن هذه الشركات وبالاسم، وعن رسائلها، وخص بالذكر إعلان «فريسكا» ورسائله الغامضة والمريبة والخاصة بالرئيس محمد مرسي والإخوان المسلمين.

قلت له إن الإعلانات قديمة، وإن هدفها استدراج المستهلك. فرد بأنه ليس بالصورة ولا بالأسلوب الحالي، وأراد أن يلفت نظري إلى إعلانات «استرجل» و«اكبر وسيطر» و«اتجنن»، وقال لي لم يكن ينقصنا سوى الجنون. ونصحني بأن أتابع الإعلانات لأعرف التوجيهات التي ستسير عليها البلاد في مُقبل الأيام، ثم سألني

عما إذا كنت بعد كل هذه السياحة على المقاهي، ولعب الطاولة المتواصل، أستطيع هزيمته. ففرحت لأن الأستاذ عبد الله قرر أن نلعب عَشَرَة.

ودخلنا المقهى، وطلبنا طاولة، كما طلبت شيشة معسل سلوم، وجلس الأستاذ عبد الله بكل فخامةٍ على الكرسي في مواجهتي، واقترحت احترامًا له أن نلعب عَشَرَة محبوسة، فرد بأنه سيهزمني شر هزيمة. ابتسمت وبدأنا اللعب. كان عبد الله يلقي الزهر بأناقةٍ شديدةٍ وهو يسحب دخان سيجارته السوبر، ويبدأ يتهلل وهو يقفل الخانات أمامي، ويخنق لعبي، وكان الزهر مواتيًا له بشكلٍ كبيرٍ، وعندما وضح أن الفوز سيواتيه بدأ يدندن، وفي الدور الثاني غنَّى:

باحلم إني في اسطنبول بالعب طاولة مع السلطان..

فعلقت، وقلت له: ربنا ينوِّلك حلمك يا أستاذ عبد الله. فقال لي: إنها قصيدة لفؤاد حداد وعنوانها «حلم عبد الله العجوز» مثلي حاليًا. فاندهشت من المعلومة، وقال لي إن باسم يوسف عرضها في «البرنامج» منذ بضعة أيام، وإنه شديد الإعجاب بباسم يوسف، وينتظره من الجمعة إلى الجمعة. كما أنه يشاهد إعادة العرض بعدها مباشرةً، وفي اليوم التالي. وأبلغته بأنني أيضًا أشاهد «البرنامج»، فهو برنامج جريء ويدل على أن المصريين يحبون السخرية من كل شيء وينزعجون من التجهم والنكد. وحكيت له أنني شاهدت

الحلقة الأولى من البرنامج مع زوجتي وأولادي وكانوا سعداء بها، أما الحلقة الثانية فقد شاهدتها على «نور الصباح» وعندها انهال عليه كثير من الحاضرين بالشتائم والسباب؛ لكنني لاحظت أن هذا تراجع وأن أحدًا لم يعد يسبه، وأن السباب تحول إلى الرئيس.

سألني الأستاذ عبد الله عما إذا كان الشك ساورني تجاهه، خصوصًا أنه برنامج مترجم، فأجبته بأنني كنت أضحك في البداية، ولكنني أؤيده؛ لأن ضحكه ليس مجانيًّا، وأنه يحاول إيقاظ ضمير الناس ودفعهم للتفكير من خلال السخرية.. أما إعجابي به فقد أصبح نهائيًّا منذ أن بدأ يغني بنفسه، فأنا واثق من أن من يستطيع الغناء لن يهزمه شيء أبدًا.. ولكن الأستاذ عبد الله قال دون أن ينظر إليّ: إن الشك لن يغادرني، وقد يأتي يومٌ تتذكرني فيه، وتقول عبدالله - رحمه الله - نبهني إلى ذلك ولم أصدقه.. وواصل تقدمه، ثم بدأت أضرب الزهر بقوة، وطار مني مرات بين المقاعد المجاورة، والغريب أن هذا كان يسعد الأستاذ عبد الله، ولما واتاني الزهر اندفعت بقوة للتقفيل، ولكن «دبش» لعينًا جعلني أفك الحصار الذي كنت فرضته، ثم بعده «يك» فرغ كل ترتيباتي، وغنى عبد الله بسعادة ولكن بصوتٍ خفيضٍ ومتحشرجٍ:

بيحمرق اعمل مش شايف

ويبرق اعمل مش خايف

والحظ محالف ومخالف لو أخسر أبقى أنا مسطول..

أما أنا فقد خسرت رغم كل محاولاتي، وقام الأستاذ عبد الله منتشيًا فخورًا كطفل، ولكنه أصر كعادته على دفع الحساب، وتحت رصيف المقهى قال لي إن «ندوة العجمي» قديمة أيضًا ولكن المالية لا يعوضها شيء. ومشيتُ معه حتى الميدان، وتوقف فوقفت، وقال لي إنه كان صديقًا لصاحبها أحمد بك سالم، الذي كان يجلس في المقهى مرتديًا بدلة من الصوف الإنجليزي، ولا يسمح لأي أحد بالجلوس، ويعرف زبائنه، وإنه كان يرى في المقهى صلاح منصور وشكري سرحان ومحمود عزمي وغيرهم. ورفض أن أنتظره لحين يقله تاكسي، وقال إنه يريد أن يعود إلى منزله سيرًا على الأقدام كما لم يفعل منذ زمن طويل. وصافحني بحرارة وقال لي إنني كنت خير الابن والزميل والصديق. ورغبت في أن أسير وراءه خشيةً عليه من رصيفٍ غادرٍ، أو سيارةٍ مسرعةٍ، ووقفت أتابعه من الميدان موجهًا ظهري لسراي إسماعيل باشا المفتش الذي حكى لي الأستاذ عبد الله ذات يوم عن تدبير الخديو إسماعيل لحادث غرقه في النيل، بعد أن بدد الاثنان ثروة البلاد، ومبنى المالية القديم الذي يعشقه الأستاذ ولا يعادل به أي مبنى آخر.. وقفت كأنني ظل تمثال لاظوغلي أنظر للأستاذ عبد الله وهو يمضي بتمهلٍ في شارع مجلس الشعب، متجهًا إلى شارع بورسعيد ومارًّا بالضرورة كما يحدث مع الجميع بـ«سوق الاثنين» على يساره ولكني كنت ما زلت أخشى عليه من زحمة الطريق، بينما التمثال ينظر في اتجاهٍ آخر..

10

قبل ذهابي إلى الأستاذ عبد الله سعيد اتصلت بسحر، وأكدت لي أن أحدًا لم يتصل بها، وسألتني عن أجري في الإعلان، ولم أجب، فقط طلبت لقاءها، ووجدتها وقد تحول تحفظها إلى إقدامٍ مفاجئٍ، ربما لظنها أنني أصبحت زميل مهنةٍ، وأن التآلف بيننا بات واجبًا. وقالت لي إنها ستترك طفلها في منزل والدتها في «ضريح سعد زغلول» ويمكن أن تأتي للقائي. واقترحت أن أمرَّ عليها أنا وخالد؛ ولكنها قالت إنها لم ترتح له ولنظراته وتُفَضِّل أن أمرَّ عليها وحدي، واتفقت معي على اللقاء أمام بوابة مسرح السلام في شارع قصر العيني، وأبلغتها بأنني سأكون قريبًا منها في ميدان لاظوغلي وسأمر عليها.

ولما أبلغتني بأن لا علاقة لها بالشيشة والطاولة استبعدت «جوهرة الخليج»، وحرت في المكان الذي سنجلس فيه، وتفتق ذهني عن مكان كان كمال أجلسنا فيه قبل أيام في كافيتريا معقولة الأسعار في الأوبرا تحت لافتة المجلس الأعلى للثقافة، ونويت الجلوس معها هناك؛ ليكون للقاء صلة بالفن؛ فمعظم الجالسين

هناك من الفنانين الشبان، وأحيانا يحمل بعضهم آلات موسيقية. وصلت في السابعة كالموعد بالضبط أمام مسرح السلام، ولم تتأخر سحر سوى بضع دقائق كانت خلالها معي على الهاتف، وشاهدتها تخرج من شارعٍ جانبيٍّ وتتطلع في وجهي؛ كي تتحقق من أنني الشخص نفسه الذي كنت خطيبها لدقيقةٍ واحدةٍ في تجربة إعلان الطلاء. وابتسمت وأثنت على التزامي بالمواعيد، الذي لم يعد يشكل أي فرق مع المصريين. ووجهتني للمشي بسرعة وهذا أمر منطقي، فمنزل والدتها قريب، ولكنها اتجهت شمالًا في شارع قصر العيني باتجاه ميدان التحرير، وهو مسدود بحجارةٍ ضخمةٍ، فجعلت محطة بنزين على يميننا، وكدنا نقترب بعد شارعين اثنين من السور الحجري، فضحكت وقالت لي: سأجعلك تشاهد إحدى عجائب الدنيا السبع.

سبقتني بخطوة ولمحت لافتة باسم «شارع سعد زغلول باشا» ثم دكانًا مكتوبًا عليه «مروان ماركت»، وكان علينا أن نمر من داخله لنعود مرةً أخرى إلى شارع قصر العيني، وذهلت! فبثلاث خطوات فقط داخل الدكان أصبحنا خلف السور الحجري. كان كل المطلوب فقط من المارة، حسب لافتة مكتوبة باليد على ورقة عريضة بيضاء: «الرجاء عدم عبور كراتين أو شنط أو أية مهمات من الباب وشكرًا». وقلت لها إنني أتخيل لو أحدهم مر بدراجة بخارية فلا يوجد ما يمنعه، فالمصريون يفعلون هذه الأيام أيَّ شيءٍ

وكل شيءٍ مجافٍ للذوق وفي كل مكان، فقط ستنشب مشاجرة بين صاحب الدكان وراكب الدراجة تستخدم فيها أشنع طرق التشاجر من سبابٍ وصراخٍ وحركاتٍ استعراضية مشينة، وربما يأتي راكب الدراجة بعد ذلك بجماعة تدمر الدكان وتؤدب صاحبه.

أمَّنت على حديثي وقالت إن الأخلاق لم تعد موجودة بعد الثورة. فقلت لها وقد حرصت على التأكد مِن مخارج ألفاظي بدقة وأنا أواصل طرح فكرتي: لقد قلت عقب تخلِّي مبارك عن الحكم بعشرة أيام فقط إن الثورة أظهرت أسوأ ما في المصريين، وإن المصريين يحبون الفوضى، وإنهم لم يُسقطوا النظام السياسي إنما النظام العام. اجتزنا جاردن سيتي عبر شارع رستم، ثم اتجهنا يمينًا إلى شارع أمريكا اللاتينية، ثم يسارًا إلى شارع مجلس الشعب في محاذاة سور السفارة البريطانية، وأصبحنا على النيل مباشرةً. كان الشارع التالي، أوزوريس، مغلقًا بالحجارة الضخمة، ثم شارع الشمس، خلف فندق شبرد بالطريقة نفسها، وهما الشارعان اللذان يتوجهان مباشرةً من شارع الكورنيش إلى السفارة الأمريكية، وسرنا بمحاذاة فندق شبرد، وقفزنا بين السيارات لعبور شارع عبدالقادر حمزة إلى جانب فندق سميراميس، الذي سرنا بمحاذاته خطواتٍ قليلةٍ، ثم انتقلنا إلى الجهة المقابلة، لنجد أنفسنا تحت أحد الأسود الأربعة لكوبري قصر النيل، وفوقه - كما أشاهد كلما مررت من هنا - شباب وصبية يلتقطون الصور.

مضينا فوق رصيف الكوبري ذي البلاط المهشَّم في كثير من أجزائه، وقلت لها إننا سنمشي خمسمائة وعشرين خطوة فقط لنكون عند الأسد الآخر في الضفة المقابلة. قلت لها لما استغربت: مشيتها كثيرا، وذات مرة قررت عد خطواتي لتحمل الشمس في أحد أيام الصيف الماضي. والتصقت بنا صبية صغيرة تحمل وردًا لا يمكن معرفة لونه من التراب الذي يعلوه كالصدأ، وأصرت على أخذه منها، فقد رأت فينا عاشقين، ما يقنعها بضرورة سداد الضريبة، طالما مضينا فوق الكوبري، ولم نتمكن من صرفها قط، وأعطتها سحر جنيهين، حتى تمكنت من إبعادها. ومررنا بثنائيات ولم أرَ فيهما عذوبة كنت أطالعها قديمًا، بالضبط ليس أكثر من أصوات عالية، والتقاط صور بكاميرات الموبايل، وإمساك خشن للأذرع فيه من الجذب أكثر مما فيه من التلامس.

وعلى الناحية الأخرى، انتصبت مقاهٍ فردت كراسيها البلاستيك على طول الرصيف مستندةً إلى السور الحديدي للكوبري، وخشيت أن أنتقل إليها بعد ألا نستطيع المشي فوق الرصيف، أو أن نحتك بأحدهم، كما أن أسلاكًا غليظةً تمر عبر أعمدة مدببة من الحديد كانت تقسم الكوبري.

أصبح كازينو قصر النيل خلفنا، وحاولنا عبور ميدان سعد زغلول، وأمسكت بيدها فعاد لي إحساس لحظة الكاستنج وأبعد، فقد كانت راحة يدها أكثر استسلامًا.

ونظرت سحر إلى حديقة الحرية على يسارنا، وسألتني إلى أين سأذهب بها، فحدثتها عن كافيتريا المجلس الأعلى للثقافة.

ودخلنا من باب الأوبرا ليقابلنا هواء مسائي منعش تنفسناه بعمقٍ ولذةٍ، وكنت تركت راحة يدها كفعل ضرورة على الباب، وبدأ جسدانا يتلامسان ونحن سائران، وهي تحدثني عن الإعلانات التي مثلتها، وعن رغبتها في العودة إلى العمل بأسرع ما يمكن، وأمنيتها في دور ولو صغيرًا في أحد المسلسلات، وأكدت أن الإعلانات تفتح الطريق، واستشهدت بغادة عادل ولقاء الخميسي.

عبرنا بابًا آخر للأوبرا أكبر وأكثر امتلاءً بالحديد أفضى بنا إلى مكانٍ فسيحٍ للسيارات، ثم وصلنا إلى الكافيتريا، ووجدنا منضدة ومقعدين، وسريعًا جاء النادل، وطلبت شايًا فيما طلبت سحر كابتشينو.

قلت لسحر إنني لن أمثل الإعلان عن «بنك الطعام»، فذهلت! وتحدثت ناصحةً بأنه سيفتح أمامي أبوابًا كثيرة. ولكنني صارحتها بوظيفتي في الضرائب، وأن الإعلان سيفتح عليَّ أبواب جهنم.

حدثتني سحر عن زوجها، وقالت إنه لا يمانع في عملها بالفن، وإن والدتها تساعدها وشجعتها سابقًا ثم بعد الزواج، وهي قالت لها اليوم إن لديها كاستنج فوافقت على الفور أن تترك طفلها لديها. قالت لي إنها لم تتزوجه عن حب؛ لأن حب حياتها لم يتحقق قط.

شجعتها على المواصلة، فقالت إنه لم يكن جادًّا في الزواج، أو في تحمل مسئولياته، ولكنه يحب الحب نفسه وليس شيئًا آخر. وأشرقت عيناها وهي تقول إنه كان يعطيها الحب الذي تتمناه، وأقسمت إنه كان مثل تامر حسني وأجمل، وإنها تشعر معه بأنها كل نجمات السينما في الأفلام، خصوصًا مي عز الدين، وأنه كل يوم يقول لها كلامًا جديدًا، كان يسحرها. فسألتها عما حدث لينتهي كل ذلك، فردت بأنه لا يحب الزواج، ولا يطيق القيود، وأنها أكدت له أنها لن تقيده ولكنه اعتبر الوعد حيلة لا أكثر.

روت لي أنه ابتعد عنها لأنها لا تتوقف عن طلب الزواج أبدًا، وأنه نفذ تهديده بالابتعاد فعلًا، ولم ينفع أي شيء في إعادته. وقالت إنها وصديقة مقربة اخترعتا شائعة عن خطفها، ولم يسأل. فلجأت إلى قصة أكثر تشويقًا؛ حيث جعلت صديقتها المقربة هويدا تكتب عن وفاتها المفاجئة على صفحتها على الفيس بوك، ولم يكتب شيئًا على الصفحة التي حفلت بتعليقات العزاء، ولم يتصل بهويدا ليعرف أسباب موتها أو مكان القبر، وكل ما نالته من قصة الاختطاف والموت أن تكونت لدى معارفها وجيرانها فكرة سيئة عن جنونها، وهي لم تكن مجنونة إلا به، وليت الأمر توقف عند هذا الحد بل طال سمعتها، خصوصًا الاختطاف وما جرى فيه، بينما هو لم يحدث من الأصل. نالني من هذه القصص التي لم أفصح قط إلا

لهويدا عن سببها أقاويل وشائعات لم تتح لي غير هذا الزوج الذي رضيت به مرغمة، والذي نقلني من ضريح سعد إلى المريوطية. قالت وكانت عيناها قد امتلأتا بالدموع إن خطوتها التالية في حلمها القديم هي عبور شارع قصر العيني إلى جاردن سيتي على الأقل ومعه هو الذي كان لديه حلم مماثل.

لا أعرف ما ينتابني عند بكاء امرأة، وبالتحديد هذه الدرجة من البكاء الخفيف المصحوب باكتئاب، لطالما تثيرني النساء في هذه الحالة تحديدًا أكثر من أية حالة أخرى، حتى حالة التزين ومحاولات إبراز الأنوثة. وشعرت بإثارة كبيرة وأنا أقدم يدي لأقبض على يدها للحظة قصيرة يمكن أن يسمح بها المكان المزدحم الخافت الإضاءة.

11

بدا السفر إلى بلبيس دونه العقبات الجسام، فبعد أن حددنا يوم الخميس، الذي بإمكاننا فيه الاستئذان من العمل مبكرًا أنا وكمال، التقينا على «نور الصباح» وكنا في انتظار خالد الشيخ لنصلي الظهر معًا عندما تلقى كمال اتصالًا من صلاح أبو الخير ليبلغنا أن الغاز انقطع منذ الفجر، وبالتالي عدم تشغيل الأفران، ما يمنع الخبز عن أهالي المدينة، وأنه يستأذن في تأجيل استضافتنا.

وكنت مع كمال حين تلقَّى الاتصال، ودفع في يدي الهاتف لكي أسلم على صلاح وأعرف منه أسباب التأجيل. كانت المرة الأولى التي أتحدث فيها معه، وجاء صوته مرحبًا ودودًا؛ لكنني شككت فيه شك مأمور الضرائب في عميل يريد أن يتهرب ولكنني لم أقطع بشيء. قال لي إنه سمع قصصًا وشائعات عدة عن قطع الغاز، وما أكثر تلك القصص والشائعات، لكن في النهاية إذا كان قطع الغاز جاء فجأة وقضاء وقدرًا وليس لأحد يد في ذلك فلندعُ الله أن يحفظنا جميعًا. وأكد صلاح أنه إذا كان الأمر بفعل فاعل فندعو الله أن يحفظ بلدنا من التخريب والمخربين والخراب،

ولنطالب بمحاسبة من فعل ذلك جنائيًّا، ولكنه قال فلنحسن النية ونتوكل على الله إنه خير معين. ولم أفهم جيدًا ما إذا كان قطع الغاز في الأفران أم في المنازل، فسألته ورد بأن الغاز انقطع والأفران لم تعمل، وبالتالي لا يوجد خبز، وأن الناس استعدوا لأكل المكرونة ولكن الغاز انقطع أيضًا عن البوتاجازات في المنازل، وما زال منقطعًا منذ الفجر وحتى الآن، وهناك تجارب لتشغيل خط الغاز الاحتياطي ولكنه ينقطع مثل الكهرباء على فترات.

وبعد الحياد ذي الطابع الإيماني المبالغ فيه انحاز صلاح، ويبدو أن ذلك حدث بعد إلحاحي في السؤال، وتحدث عن أنه بعد الثورة بعض العاملين في شركة الغاز من التابعين للنظام السابق نفذوا توصيلات خارجية بالتعاون مع عصابات وبعيدًا عن الشركة ولحسابهم الخاص، ثم اختلفوا على الغنائم وحينها انفضح أمرهم.

قال أبو الخير: إن عدَّاد الغاز الرئيسي في الشركة سجل أرقامًا أكثر بكثير من المال المحصل من المستهلكين، فبدأ الشرفاء من أبناء الشركة في التلصُّص على بعض العاملين، ومتابعة توصيلات الغاز في بلبيس كلها لمعرفة أين يذهب الغاز، ثم بدأت المافيا التي كانت تقوم بتلك الأعمال المخالفة في التشاجر فيما بينهم، حتى وصل الأمر إلى أنهم تعدوا على بعضهم بعضًا بالأسلحة البيضاء، وعندما تحركت الشركة لقطع بعض التوصيلات غير القانونية، قامت هذه المافيا بدفع البلطجية لإتلاف الماسورة الأم للغاز.

وأكد أبو الخير أن في يده الآن مذكرة اعتذار عن قطع الغاز صادرة عن شركة الغاز وزعتها على أهالي مدينة بلبيس وشرحت فيها الموضوع، واستطرد بأن المذكرة مكتوبة على الكمبيوتر، ولا تحمل أي أختام للشركة أو حتى توقيعًا، فقط مكتوب أعلاها «نداء هام وعاجل من شركة ناشيونال جاس لأهالي بلبيس».

بدا صلاح حريصًا على شرح تفاصيل تنجيه من مظنة أنه يتهرب من دعوتنا، ولكنني صدقته من صوته، ولم نكن التقينا وجهًا لوجه بعد، واتفقنا على يوم الاثنين المقبل، أي بعد أربعة أيام فقط. وعقب المكالمة جاء خالد ليُصدم في إلغاء السفر وتأجيله بسبب قصة الغاز. جلسنا على «نور الصباح» واستأذنتهما للحظات، وأجريت اتصالاً مع سحر لنلتقي، وكانت حيلة الكاستنج جيدة مع والدتها وزوجها وبالتالي طفلها الرضيع، ورحبت باللقاء في اليوم نفسه. كانت سحر سألتني ونحن في كافيتريا المجلس الأعلى للثقافة عن رأيي فيها، وقد قلت لها إنني معجب بها حتى قبل أن نمثل المشهد، وإنها مثيرة، وإن تامر حسني ذاك لم يكن ذكيًّا بما فيه الكفاية ليضيع منه فتاة جميلة وطيبة مثلك وتشبه مي عز الدين.

سعدت سحر برأيي ونظرت إلى ساقيها بخجل يشجع على المزيد لا على التوقف، ثم ذكرتني بالمشهد ومدى تأثرها به؛ ولكنني أعطيت انطباعًا بأنني لن أواصل في هذا الطريق، فلاحقتني بأنها لم

تمثل هكذا من قبل؛ لأنها في مكاتب الكاستنج كانت تترك بعض الصور التي كلفتها كثيرًا، أو تقف أمام الكاميرا لتنطق باسمها ورقم هاتفها، وتستدير لتأخذ لقطة جانبية وأخرى بورتريه ويشكرونها ثم «سنتصل بك». هكذا جاءها إعلانا الجبن والسمن، ولكن الاختبار الأخير أسعدها وأعطاها أملاً في أن يشاهدها خالد يوسف ويصنع منها نجمة كبيرة.

والتقينا في تكرار مدهش لليوم السابق، ذهبت إليها عند بوابة مسرح السلام في شارع قصر العيني، وعبرنا ممر مروان ماركت، وقطعنا الشوارع نفسها، ولكننا دخلنا حديقة الحرية وتركنا تمثال أحمد شوقي على يسارنا واتجهنا يمينا، وجلسنا متجاورين تحت شجرة وأمامنا تماثيل نصفية عديدة هي الوحيدة التي كانت تحدق، بينما الثنائيات المنتشرة في الحديقة مشغولة بنفسها. جلسنا على العشب خلف قاعدة لتمثال الجنرال إيلوي ألفارو من الإكوادور، وأمسكت يدها فيما يلامس صدرها كتفي، وانسالت دموعها وأخبرتني أنها لم تكن لتصدق أن يأتي اليوم وتحب مرةً أخرى، هي التي أغلقت باب القلب، لم أكن قلت لها قط إنني أحبها، فقط قلت إنني معجب بها وإنها مثيرة، ولكن مع نزول الظلام على الحديقة، والإضاءة البيضاء الخافتة تحرك فيَّ دفق الشهوة، وارتعبت ولكن الرعب لم يمنعني قط من أن أنحني ببطء في أضيق مساحة منظورة للتماثيل والثنائيات

الأخرى المهمومة بالرغبة والخوف، وقبلت شفتين مغموستين بالدموع، كانت مرة ولكنها أثارتني، وكنت واثقًا من أن عدم ملاءمة المكان فقط هو ما يمنعني من المضي أبعد. كانت سحر هي المرأة التي تعطيك إحساسًا بالخضوع والذوبان التام.. تعطيك ولا تبحث عن مقابل حتى من الأحاسيس، مادة خام للجنس فيما رائحة لبن الرضاعة تفوح من بين مفرق ثدييها الكبيرين عبر أزرار قميصها فتدخلني في أجواء الخلق والتكوين.

قمنا متلاصقين بالأيدي والأكتاف، وكدنا نترنح في سيرنا، ومضينا خارج الحديقة حتى نوقف التمادي الواقع حتما إذا ما ظللنا في المكان نفسه. وطلبت سحر والدتها لتبلغها بأنها ستتأخر قليلًا، وسألتني عما إذا كان هناك مكان هادئ يمكن أن نجلس فيه معًا، وكان ردي أنني لا أعرف سوى المقاهي ولا أملك مكانًا خاصًّا. لم يكن أحدنا يريد ترك الآخر فهي في الكاستنج وأنا في أيام تسلم ومراجعة الإقرارات الضريبية كما يحدث في شهر مارس دائمًا، ولكننا سرنا في شارع الجزيرة بمحاذاة النيل وانحرفنا يمينًا إلى شارع صالح سليم ثم تسلمنا النيل على يميننا مرورًا بمطاعم عائمة مضاءة تربض أمامها سيارات فارهة، وتمنيت أن أتجرأ وندخلها ولكنها كانت ستستحوذ على راتب شهر على الأقل، فيما تحسَّست بيدي الأخرى حواف معدنية في جيبي وبضع أوراق من

أرقام صغيرة تعني أن أقصى ما يمكن لها أن تفعله هو طبقان من الكشري عند أبو طارق. وصلنا إلى شارع سراي الجزيرة، ومررنا أمام فندق الماريوت، ثم عبرنا إلى الناحية الأخرى، ودخلنا شارع المعهد السويسري أو عزيز أباظة الآن، وكان ضيقه ومرور السيارات المتتابعة فرصةً لمزيد من التلامس الذي عاد أكثر جنونًا بيننا فيما لم نعد ننتهز الفرصة والمبرر لهذا بل ظهرنا كعاشقين قديمين ندور في الشوارع بغير بوصلة توجهنا، وسلمنا القيادة للرغبة العارمة.

مضينا في شارع محمد مظهر، ثم دخلنا مباشرةً بعد مرورنا أمام فندق سفير الذي تحول إلى هيلتون في شارع صغير، سيسلمنا إلى ضفةٍ هادئةٍ على النيل، كنت أعرف أن الشباب يلتقون بها، ويتحررون عليها نسبيًّا من عبء الملاحقة.

وأمام منزل من أربعة طوابق في الشارع الهادئ والمتواطئ جلسنا ملتصقين مرة أخرى على سور حجري ضيق، واستندنا إلى أعواد من حديد وخلفنا النيل الذي تفصلنا عنه حافة نبتت فيها بعض الأغصان، وأتذكر جيدا أن أعواد الحديد هذه لم تكن هنا من قبل، كان سورًا حجريًّا منخفضًا يجعل من الجلوس فوقه متعة، أما هذا الحديد الذي سجن النيل وراءه فلم يكن موجودا، ويبدو أن أحدهم أشار بإقامته للتضييق على رواد المكان. لا أعرف جنون هذه المرأة الشابة الجالسة إلى جواري بنجوم السينما، وهي

إذا نظرت إلى النيل الهادئ تنعكس عليه أضواء الجانب الآخر الصفراء وخطوط بيضاء أرسلها القمر، مر في النهر مركب صغير يكسر الصمت بأصوات تتجاوز حاجة راكبيه وجانبي النيل وأبعد، احتضنت يدي بقوة، وقالت لي وعيناها تنظران إلى المركب المضيء بالأنوار والأغنية عالية الصوت، فيما نلمح ظلال إحداهن ترقص، إنها واثقة من أن كيت وينسلت أحبت ليوناردو دي كابريو خلال تصوير «تايتانيك» وإلا لما تمكنت أبدًا من أن تعطي هذه الفرحة في عينيها خلال لقطتهما على مقدمة المركب. ثم نظرت في عيني وتجولت في سائر وجهي لتطلب مني أن أصدق أنني أشبه نور الشريف، ولم يكن هذا صوابًا من أي جانب ولكنني انتهزت الفرصة لأشدد على أنها بوسي كما خلقها الله، واحتضنتها بقوة وقبلتها حتى بلغت نشوتي وأظنها كذلك. وكنت لمحت في الطابق الثاني امرأة ثلاثينية، ربما، تنظر إلينا بولع وقد أطفأت أنوار حجرتها حتى لا تُرى ولكنني كدت أشعر أنها امرأة مهجورة تتعزَّى بغيرها، فيما أشم رائحة رغبة حارقة لديها، أو هكذا تصورت.

12

دعتني سحر إلى منزل أمها في ضريح سعد بدلًا من اللقاء أمام مسرح السلام، وأكدت لي أن الأمر طبيعي وإذا ما سألني أحد فأنا صاعد إلى عمتي في الدور الثالث. وذهبت وفتحت لي الباب، وقالت لي إن أمها وطفلها في بيتها في المريوطية وإنها سوف تلحق بهما، وطلبت مني توصيلها بعد قليل. حيل من السينما ولكن كنت أظن أن الأبطال الذكور هم من يرتبونها ولكن بدت سحر وكأنها تعيش في فيلم لا ينتهي. أبلغتني أنها رتبت الأمر على هذا النحو؛ لأن حكاية الدوران في الشوارع لم تعد تلائمنا قط، خصوصًا أننا ارتبطنا معًا بقصة حب خالدة، وشَعُرت بالإحراج الشديد كأنني الفتاة التي نُصب لها الفخ، ولم أدرِ ماذا أفعل لكي أخرج من هذا المكان. لم يكن بوسعي أن أتحرر من وعد قطعته على نفسي ألا أدخل في علاقة مع امرأة متزوجة أبدًا بعد ما جرى لي وبعد نجاتي من القتل بأعجوبة.

وتذكرت الدكتورة فاتن، التي كان ملفها الضريبي عندي في المعادي، وهي من اجتهدت بسببها لأنتقل إلى مأمورية إمبابة.

يأتيني من يفتح ملفًّا للمرة الأولى وكأنه في يوم الحساب، ولما عاملتها باحترام وساعدتها في ملء بيانات الملف، ونصحتها كثيرًا لأعفيها قدر الإمكان وبما تسمح به اللوائح من أية مبالغة في تقدير أرباح صيدليتها، عَدت ذلك شيئًا خاصًّا، وأرسلت لي نظرات غاية في الامتنان، ودعتني إلى زيارتها في الصيدلية.

كنت من جانبي قد أعجبت بها، ووجدتها في الصيدلية أكثر تحررًا ورحبت بي وقدمت لي هدية موبايل ورفضتها؛ تاركًا العلبة فوق زجاج طاولة عرض الأدوية، وخرجت مسرعًا ولم أرد على نداءاتها لي. واتصلت بي معتذرةً وألحت عليَّ في العودة، وأن أنسى تمامًا أمر الهدية. وعدت فلم أكن أستطيع السيطرة على نفسي عندما أشاهدها تتحدث، وكانت شفتاها المكتنزتان تتحركان مع حديثها بشكلٍ لافتٍ يشعرني بالإثارة، كل الشفاه تتحرك عند حديث أصحابها، ولكن هاتين الشفتين تتقوسان وترتعشان. كانت تميل إلى سمرةٍ خفيفةٍ ولها عينان واسعتان، ووجه مستدير رائق، وضحكة عالية دائمًا يتبعها خجل، ولكن بعد أن يكون قد انفتح لها القلب. كنت دائم المرور عليها بشكل شبه يومي، وكنت أشعر بدرجة تطور علاقتنا من تطور المصافحة التي باتت احتضانًا يوميًّا لجسدينا من خلال كفينا، وأصبحت أتحدث بشكل علني ما بين زبون وآخر عن إعجابي بها وعدم قدرتي على الخلاص من التعلُّق بها.

وذات يوم حدثتها وأنا في المأمورية وكانت ما زالت في البيت، وضغطتُ عليها لكي أشرب معها قهوة الصباح فقط قبل أن تغادر إلى الصيدلية وكانت أخبرتني بهذه العادة التي باتت لا تستغني عنها أبدًا، ووافقت. فزوجها في العمل وطفلاها في المدرسة. وبعد أن أغلقت خلفي باب الشقة واحتضنتها بكت بشدة ولكننا دخلنا مطبخها الواسع، وجلست على منضدة صغيرة للطعام، وكانت تعد القهوة وقمت مرةً أخرى بمحاولة ولكنها بكت مرةً ثانيةً وحدثتني عن مأساتها لزواجها من هذا الرجل الذي رحبت به في البداية لكونه من برج الميزان، ظنته حنونًا وعادلًا، وتهيأت لحياة سعيدة كونها من برج الحمل، ولكنه يعاملها بأسوأ أنواع القسوة والظلم، لا لشيء إلا لأنها تستقل بحياتها المادية عنه، كما أوصاها أبوها وكان معتزًّا بأولاده، خصوصًا البنات؛ لأنه من برج الثور، والذي ورثت عنه الصيدلية، كما أنه شخص كئيب، وكثيرًا ما يضربها، وأحيانًا ما يهددها بالسلاح الذي لا يفارقه، ولكنها لا تريد أن تفشل أبدًا وتريد أيضًا الحفاظ على حياة طبيعية للطفلين.

شربنا القهوة وقالت لي إنها لا تكاد تطيقه في الفراش، ولا تعرف متى بدأ ومتى ينتهي إلا بنوع من الأوامر، مثل الآن، وبعد أن ينتهي يبتعد قائلاً: خلاص، ويكون بذلك جاءني الخلاص.

هذه المرأة المحرومة عاطفيًا أمامي الآن، أتذكرها جيدًا في شقة والدة سحر، وأتذكر أنها قادتني إلى عالم الأبراج، وأوضحت لي أن لكل برج من اسمه نصيبًا، وأتذكر أنني قررت ولوج منطقة عواطفها الغائبة، ودخلنا إلى غرفة نومها، وأنا أحاول أن أكون على نقيض من ذلك الميزان الفظ الذي تزوجته. وعلى عتبة باب الغرفة بدت وكأنها لا تريد أن تدخل قبل أن تعرف برجي فقلت خائفًا ألا يكون ملائمًا إنني من برج الحوت، فابتسمت وقالت لي إنني عاشق معطاء..

لم ينقطع بكاؤها سوى للحظات هي تلك التي كنا فيها معًا، عايشنا فيها متعةً متبادلةً، قالت إنها الأولى في حياتها قبل أن تعود إلى البكاء. ونظرتُ في الساعة وطلبت المغادرة بشكلٍ عاجلٍ للعودة للعمل لانتهاء ساعتَي الإذن اللتين حصلت عليهما، وفي الحقيقة كنت تذكرت فجأةً تهديده لها بالسلاح الذي لا يفارقه، وخشيت أن أموت على سريرِ امرأةٍ غريبةٍ عنّي، وفي حادث من هذا النوع الفضائحي. وخرجت من باب الشقة لأجد المصعد مشغولًا ففكرت في النزول طابقًا واحدًا لأخذ المصعد الثاني، وإذ أقف أمامه أستمع لباب المصعد فوقي يفتح ويغلق ببطء ثم باب شقة فاتن يفتح ثم يغلق بنعومة وكأن أحدهم يتسلل، إنه هو بالتأكيد فقد قالت لي إنها لا تشعر بوصوله أبدا؛ ليستمع لمكالمة ما تجريها، أو

حوارات لها مع الطفلين. وشعرت بتعلق روحي في سقف حلقي، وأكتشف فجأةً وصول مصعدي لأفتحه وأنزل وقد كان يمكن أن أكون قتيلًا الآن ولكنني أصبحت في الطابق الأرضي. قررت ألا تزيد علاقتي بالدكتورة فاتن على لقاءات متباعدة في الصيدلية، ولكنها باتت اللقاءات التي تضغط على أعصابي في كل مرة. كنت تأكدت أنه جاء في أعقابي مباشرةً، وأنها باتت خائفةً وليس فقط كارهةً للعيش معه وتريد حلًّا آخر، وبدأت تتحدث بانفتاحٍ أكبر مما كانت عليه قبل أن أزورها في بيتها وتكاد تبكي وهي تحدثني عن فظاعات، لم يكن هناك محرمات أو ما تداريه الآن، حكت وتحكي كل شيء، وفاجأتني بأنها لم تعد تطيق حتى ملمسه الاعتيادي، وفي لقائنا الأخير الذي غيرت بعده شريحة موبايلي إلى الأبد وسعيت في النقل من المأمورية تحدثت عن أنها طلبت منه الطلاق.

في بيت والدة سحر، تصورت للحظة أنها ستقدمني كزميل مهنة وليس كما أعدت ورتبت للقاء، وبت حريصًا على النزول من الشقة من دون أن أجرحها أبدًا، فلم يكن من المتصور أن تكون لي علاقة بامرأةٍ متزوجةٍ بعد تجربتي السابقة، ولمت نفسي لأنني كنت أعرف من البداية أنها متزوجة، ولكنني أيضًا في بحثي عن كوني ما زلت أستطيع أن أبني علاقاتٍ، تماديت. مرَّرتُ لنفسي فكرة أن أستعيد أيام المراهقة والشباب، وراق لي تصور أنني أهيم في الحدائق والشوارع كطالب جامعي معذَّب لا يملك سوى الوقت

والأحلام كما كنته في ما مضي. لكن علاقة كاملة مع سحر.. فإن هذا بات مستحيلًا عندي، ووضعت الهاتف على أذني لأتحدث مع اللاشخص وأقول إنني قادم حالًا، وقلت لها إن خالد في طوارئ مستشفى الهلال الأحمر بعد حادث على الدائري وسأنزل له حالًا.

بالفعل نزلت واتصلت بخالد واتفقنا على اللقاء أمام نقابة المحامين، قبل أن يذهب إلى مكتبه، وذهبنا إلى التكعيبة سيرًا على الأقدام، كان الوقت ما بين العصر والمغرب، وجلسنا على الرصيف وجاءتنا الشيش والطاولة وبدأنا التدخين واللعب. ليفاجئني خالد بأن توقعاتنا دقيقة، فسألته عما يعني، فقال إن المرأة الشابة التي وجدناها في مكتبه كانت فعلًا موجودة بسبب مشكلة إيجار شقة قانون جديد، وإنها من منطقته في ساقية مكي وإن لم يعرف بيتها جيدًا وأوصاها به أحد جيرانه، وإن طفلتها تبلغ من العمر ثلاثة أشهر فقط، ويريد مالك البيت طردهم، فزوجها لا يعمل ولا يملكون دفع الإيجار. وسألته عما فعل، فقال لي: دفعت لهم الإيجار.. وبدأ يصف ميوعتها عندما يجلسان معًا في المكتب، واعتبر ملابسها المتواضعة فقط المانع الوحيد لتشبيهها بأجمل من خطت عتبة مكتبه. أكدت حديثه، فاللحظة العابرة التي رأيتها فيها كانت كافية لأراها بالفعل جميلة وشابة، والأكثر من ذلك طريقة نظرتها المثيرة وجسدها في العباءة السوداء، الذي يتراقص مع تموجات الثوب من الخيوط البيضاء الجانبية والخلفية التي تحدد معالمه.

اعترف لي خالد أنه نام معها في المكتب قبل أن نأتي مباشرةً وطلب مني ألا أبلغ كمال لأنه متزمت وسيستغل الموقف عندما نتناقش في السياسة وقد يشبهني بنائب طوخ، ووعدته.. وسألته عن طفلتها فلعنها وقال إنها لم تهدأ إلا عندما أخرجت أمها ثديها لإرضاعها وكنت في وضع صعب، وتخيلت الوضع الثلاثي بين الرضيعة وأمها وخالد، ودخلت في نوبة ضحك حتى دمعت عيناي، وشاركني خالد الضحك. وسألته كيف تمر مسألة كعلاقته مع امرأة متزوجة في الرأي الديني، وأكدت له أنني لست بصدد لومه أو تأنيبه، ولكني أريد أن أعرف كيف تمر بداخله هذه المسألة، فردد الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

ولم أرتح لهذا التبرير، ولكنه قال لي إنه لن يفعلها ثانيةً.

13

كان عليّ أن أترك آلاء في الوقت المناسب، أو أن أباعد ما بين لقاءاتنا قبل أن تبدأ في تقليد معتزة التي طلبت الزواج بعد أن أقسمت إنها تحب حياة الحرية والحياة من دون قيود اجتماعية بالية.

كانت معتزة قصة قديمة خلال سنة وجودي في الجيش جنديًّا في سلاح الدفاع الجوي، كنت الوحيد تقريبًا الذي أراها جميلة وبدا لي بعد ذلك أن حيويتها، وجرأتها، وشيطنتها كانت وراء رؤيتي تلك، وأيضا راقتني طريقة تفكيرها في الحياة ولعناتها المصبوبة طوال الوقت على مؤسسة الزواج التي حولت أمها وشقيقتها الكبرى إلى خادمتين، وشقيقها الأوسط إلى فرد من أسرة زوجته، وما كان ينقصه سوى تغيير اسم العائلة.

كنت بحاجة إلى من تتفق معي في هذه القناعات، وتلك كانت معتزة التي حكت لي أنها كانت مخطوبة لأحدهم قبل أن تتعرف إليَّ ولكنها طردته شر طردة؛ إذ أرسلت إلى والده خاتم الخطوبة «الألماظ» من دون علم أحد من أسرتها، ولكن والده رفض واستدعاهم جميعًا عند الصائغ انتقامًا ليدفعوا فارق السعر؛ حيث

ينخفض «الألماظ» عند بيعه، وزاد بأن قبض فارق الثمن ولم يبع الخاتم، وانخرطت في الضحك وهي تتحدث عن أمنيتها في أن تعرف قبل أن تموت في إصبع من يرقد الخاتم الآن.

أكدت لي أنها لا تريد الزواج، ولا تطيق رائحة الأطفال والمطبخ، وتحدثت عن الحياة من دون زواج مثل الأوروبيين.

عشنا هذه الحياة طوال مدة تجنيدي وكنت عريفًا ولكنها كانت تنتظرني في محطة السكة الحديد في ميدان رمسيس كضابط قادم من الحرب منتصرًا، بينما كنت قادمًا من سيدي براني، التي لا يعرفها أحد، حيث تخدم وحدتي هناك، عبر مرسى مطروح في سفرةٍ طويلةٍ مرهقةٍ، وفي يدها عقد من الفل، أو باقة ورد، أو هدية ما، ونذهب إلى بيت شقيقتها التي تعيش مع زوجها في الكويت؛ لأمضي نصف إجازتي. وبعد أن أنهيت سنة التجنيد بدأت تحدثني عن خشيتها من انفضاح أمرنا، وباتت نكهة كلامها الرائعة التي كانت تَمْتَاز بها تجف في الحلق وتقلقني، وطلبت أن أزور والدها لأن نظرات الناس لها ونحن ندلف إلى شقة شقيقتها في رابعة العدوية أصبحت أكثر إمعانًا في السخرية والإهانة وهي تشعر بها.

تركت معتزة من دون سابق إنذار ولكنني كنت سألتها قبل الرحيل، وكاختبار أخير قبل أن أنفذ ما انتويته، أن نتعرف ببعضنا من جديد على الأسس التي يعتمدها المجتمع الذي باتت تتحدث

عنه بعيدًا عن الاستثنائية التي كانت لنا والتي جمعتنا في يوم ما على حياةٍ مشتركةٍ، ولكنها رفضت لأنه من المستحيل أن نبدأ من جديد، وعلينا أن نكمل بقليل من تعديل المسار، بما يضمن أن نستمر كما نحن، ولكن نعطي المجتمع المنحط ما يريده، ولم ألتقها مرةً ثانيةً.

خفت أن تتحول آلاء المسحورة بحريتها، واختفاءاتها، وخلواتها، إلى معتزة أخرى وإن بشكل مختلف وتطلب ما لا أستطيعه. وخططت لتركها من دون أن أترك أثرًا، وكنت بارعًا في هذا، وواعدتها في التكعيبة. وكالعادة التقينا أمام بوابة جروبي في ميدان طلعت حرب، وذهبنا سيرًا على الأقدام للمقهى عبر شارع محمود بسيوني فشامبليون، وجلسنا لنلعب عَشَرَة طاولة وجاءت الشيشة لي، فيما فضلت هي تدخين سيجارة.

قلت لها إنني لاحظت أن الدومينو باتت منافسًا شرسًا للطاولة، وإنني أشاهد الآن في المقاهي تسللًا حثيثًا من رقع خشبية جديدة مغطاة بأقمشة خضراء وحمراء للدومينو، وإنني أشعر بأن حيوية ما تسيطر على الملتفين حولها في المقاهي. وحكيت لها للمرة الأولى عن الأستاذ عبد الله سعيد وعن أنه كان حتمًا سيضع المعنى لوجود 28 قطعة مستطيلة الشكل من العاج أو عظام الحيوانات لأحجار الدومينو وقد يُلحقها بعدد حروف الأبجدية العربية.

وانجذبت آلاء لحكاياتي عن الأستاذ عبد الله وتفسيراته وطلبت لقاءه وأكدت لي أن لقاءاتي أنا معه ليست فقط من باب الوفاء ورعاية المسنين؛ لأن الرجل من العارفين حقًا. ولم أفتح هذا الباب أكثر من ذلك كيلا يصرفني عن البحث عن وسيلة للولوج فيما أريد أن أتحدث فيه، ولكن آلاء طالبتني بأن أتمعن في السبب وراء قوانين لعبة الدومينو، وكيف أن كل لاعب يحصل على سبع قطع في البداية ما هي إلا عدد أيام الأسبوع، وإذا لم تواتك الأيام ستسحب من أيام أُخر مصفوفة على جانب من أرضية الدومينو كالقدر، وعددها ضعف الأيام التي ما بين يديك أي أربعة عشر حجرًا، وطلبت مني أن ألاحظ أن كل لاعب يسعى إلى التخلُّص مما في يديه بسرعة قبل الآخر، حيث عجلتنا في كل شيء. وقالت لي إن هذا رأيها وهو غير ملزم لأحد، وإن الحياة ما هي إلا أرقام وخطوط هندسية، وقالت إن الإخوان سيمنعونها أيضًا بعد أن يسيطروا على مفاصل الدولة مع الشطرنج والطاولة، فالدومينو عندهم حرام قطعًا، مع أنها لعبة والمفترض ألا تحرم إلا إذا كانت تتضمن الرهان والقمار.

شعرت بأنني جالس أمام النسخة النسوية من الأستاذ عبد الله سعيد، وهزمتها في العشرة الأولى وسألتني بما أنها لن تتمكن من هزيمتي في المدى المنظور فهل أتنازل لها وأدعها تطلب عكس القواعد، ووافقت. فسألت: ما بك؟ خفت مما لو كانت عرفت ما

أفكر فيه من التخطيط لإنهاء هذه العلاقة، هي التي قالت لي إن لها شفافية خاصة وغرقت في محاولة تفسير ما بي ووجدتني أحاول شرح ما بي كما لو طلب مني طبيب نفسي أن أشرح.

قلت لها إنني أيضا أعتقد فيما قالته من أن الحياة أرقام وخطوط وأشكال هندسية، وإنني أرى حياتي، وربما حياة معظم الناس، في ثلاث دوائر: الأولى دائرة العائلة، والثانية دائرة العمل، والثالثة البلد الذي نعيش فيه. وفيما يخصني فإن المشكلة التي أعانيها وربما أتحدث فيها مع أحد للمرة الأولى.. أنني الآن تحت وطأة دوائري الثلاث التي ليست أسورة من ذهب، كما كنت أتمنى، إنما أغلال من حديد، فلا الحياة العائلية مريحة بالنسبة لي ولا لعائلتي كما لا أستطيع أن ألبي لهم طلباتهم المادية والروحية بعيدًا عن تذكيرهم بقسوة الحياة، ولا العمل الذي أمارس فيه دور جابي أموال الناس عبر التاريخ، بينما لا أجد من ينصفني ويفتح أمامي آفاق العمل والترقيات التي أستحقها حتى ما عدت أسعى إلى شيء، والدائرة الثالثة التي نراها الآن في بلد يبشروننا بأن أمامه ثلاثين عامًا ليعود إلى ما كنا فيه من استقرار ليلة ثورة 25 يناير.

قلت لها إنني مضغوط تحت هذا، وربما أمارس سياسة تدميرية لذاتي، فلا أرتاح ولا أريد الراحة، وأفكر حتى إذا ما مرضت ألا أباشر علاجًا إنما أستسلم للمقادير ربما تكون الحياة أفضل من دوني،

حياة الجميع، فيما أتخيل تلك الدوائر إحداها أو ثلاثتها تتحول إلى مستطيل يكون تابوتًا في النهاية يجد مستقره تحت الأرض وفوقه لوحة مربعة كشاهد قبر، وإنني بين الدوائر والمستطيل والمربع أعيش حياةً مرسومةً بدقةٍ كآلة تعذيبٍ من الأزل.

والآن أنا أكثر حرصًا على التخلُّص من الأيام كقطع الدومينو في اليد، وما النهار إلا عذاب وربما في النوم فقط آخذ استراحةً من الحياة، وفي الحقيقة الأصدقاء أيضا ولكنهم نادرون وأيضا متقلبون.

أبرقت عينا آلاء بدموع ممتنعة عن النزول مع ابتسامةٍ جديرةٍ بأن توجَّه لطفلٍ غاضبٍ، وقالت لي إنني بحاجة إلى زيارةٍ فوريةٍ لشاليه السخنة، ثم تراجعت وأكدت أنني بحاجة إلى ما هو أسرع وطلبت مني أن أدفع الحساب لنذهب إلى ورشتها في المهندسين ولتدخلني جيبها السري الذي لم يلجه أحد من قبل.

واتجهنا إلى سيارتها المصفوفة في شارع صبري أبو علم وسرعان ما كنا في الورشة، وطلبت مني ألا أفاجأ بأنها أيضا تقيم بها لأنها لا تستطيع أن تعيش في منزل العائلة، هي تزورهم فقط، وقد ارتضوا الصيغة التي فرضتها بعد الكثير من المشاحنات. وفي ورشتها، الجميلة رغم ارتباكاتها وإحساسي بأن لا نظام فيها لا المقاعد ولا المناضد الموزَّعة بغرابة ولا لوحات الحائط الملقاة من دون ترتيب على الجدران، كان هناك شيء ما يوحد هذه الفوضى.

أراحني الوصول إلى هنا، وشعرت بأنني في فصل طفلتي في الحضانة الذي أدخلتها إليه في اليوم الأول في شبه عنوةٍ، بينما تمنيت لو كان لي بدل من فصول اللاجئين التي كانت عليها مدرستي الابتدائية. قدمت لي بيتزا ساخنة وعلبة بيرة، وغابت لتأخذ دشًّا ساخنًا، ثم جاءت مدثرة في روب قطني أبيض طويل ومعها طعامها في طبق واحد ثم أدخلتني غرفة نومها وكانت تحوي سريرًا يكاد يلتصق بالأرضية ودولابًا خشبيًّا وتسريحة وسجادة يدوية وخلف السرير مكتبة معلقة، فيما الإضاءات تشع ضعيفة في الأركان ولمباتها مغطاة بأشكال مختلفة من أوراق وأقمشة.

واقتربت مني، وقد استعذبت حالة الأسى التي حملتني إلى هنا، ونسيت ما كنت أريده من حديثٍ قد يناسبه لقاءٌ أخير مع آلاء، ولكنني أيضًا لم أجد معضلةً في أن يكون اللقاء الوداعي حافلًا بما لم أكن أتخيله قط. وجدت كرسيًّا واحدًا مكسوًّا بالقطيفة، واقتربت منحنيةً عليَّ لتقول أريد أن أنظر إليك هنا في مملكتي الخاصة، أن أنقل إليك بعضًا من حيلي وحلولي، ووضعت جبهتها على جبهتي بقوة، ثم دست أنفها في أنفي، وتلاقت العينان، وتعاركت رموشنا، وقبلتها بنهم، ولكنها عادت لتقيم ظهرها، ودارت على الإضاءات تطفئها في شبه رقصةٍ، وفي ظلامِ الحجرة اقتربت وأمسكت بيدي؛ لنقف متواجهين ولأجدها عاريَةً تماما، فسارعت بخلع ملابسي وفكرت أنها لم تتعرَّ تحت الضوء لأنها ما زالت غير قادرة على مواجهة أحد بآثار عملياتها الجراحية الست.

وبدأت أتحرك في الحجرة المعتمة، إذ لم يكن الظلام دامسًا، وكانت هناك إمكانية لأرى حدود الأشياء في الغرفة، وانحناءات جسدها، وسارعت بإدخالنا تحت الغطاء ثم استندت بظهرها إلى مؤخرة السرير وأضاءت لمبة لم يكن ضوؤها يتجاوز حدود الجزء العلوي في السرير؛ لألمح آلاء وهي تجذب كتابًا ضخمًا من المكتبة فيما يتحرك ثدياها بحرية كلوحةٍ موازيةٍ للوحة على الجدار، ألمحها للمرة الأولى لامرأة نصف عارية تمد يدها لتقطف لرجل فاكهة لم أعرف ما هي في أجواء مشابهة لما نحن فيه. وضعت الكتاب في يدي وطلبت مني أن أقرأ لها أولًا لأنها تحب نزار قباني، وتمنت أن يقرأ لها رجل من شعره قبل أن يمارسا الحب. كانت الأعمال الكاملة للشاعر نزار قباني وفتحت الصفحة التي تريد أن أقرأ لها منها، وكان عنوان القصيدة «طفولة نهد»، وقرأت محاولًا تقليد الشعراء من أيام أمسيات الجامعة، ولم يتجاوزني الأسى في أنني إلى الآن، ويبدو للأبد، لم أحقق شيئًا مما كنت أحلم به في تلك الأيام، ولما لاحظت شرودي، قالت لي اقرأ، فقرأت:

سمراءُ.. صُبِّي نهدكِ الأسمرَ في دنيا فمي..

نهداكِ نبعًا لذة حمراء تشعل لي دمي..

متمردان على السماء، على القميص المنعم..

صنمان عاجيان..

أوقفتني واستندت بنهدها إلى كتفي وقلبت الصفحة، وقالت:

من هنا.. أكمل.. وواصلت وأنا زائغ العينين بين جسدها وبين وصف الكتاب:

يا صلبة النهدين.. يأبى الوهم أن تتوهمي..

نهداك أجملُ لوحتين على جدارِ المرسمِ..

عادت لتضع إصبعها على فقرةٍ جديدةٍ وتطلب بخجلٍ ووجه محمر بالفعل وهي تهز رأسها فقرأت من السطر الذي وضعت إصبعها عليه:

لا.. لا تظلمي..

نهداك ما خُلقا للثم الثوب.. لكن.. للفم..

مجنونة من تحجب النهدين.. أو هي تحتمي..

مجنونة.. من مرَّ عهد شبابها لم تلثم..

وأغلقت المجلد بأصابعها وهي تنظر بغنج مرتعش، وحملته واتكأت عليّ لتضعه في مكانه في المكتبة فوق السرير، ثم تحركت بجذعها قليلا لتطفئ الإضاءة المسلطة علينا، وتعود إليَّ. في الظلمة وهي تزيح الغطاء عن ساقيها، ونحن ندخل في قبلات زادها الشعر إثارة وسخونة، تقول لي: هنا لابد أن تتخلص مما بك، الدنيا تستحق أن نعيشها لأنها ببساطة لن تتكرر، ثم تقول ما أرعبني: ثم اطمئن لن تتزوجك امرأة تطلب منك قراءة نزار قباني على السرير قبل أن تمارسا الحب.

14

أخيرًا نحن على الطريق الدائري في سيارة خالد متجهين إلى بلبيس، ويتابعنا عبر المحمول صلاح أبو الخير، وقال إنه ينتظر اتصالًا عندما نصل إلى موقف العاشر، مشددًا على ألا ننزل النفق تحت طريق القاهرة - الإسماعيلية الصحراوي، وتتبعنا صلاح معظم الوقت حتى خرجنا من الطريق المشوه بكل السبل.

أضحيت خارج القاهرة مرةً أخرى، لا يمنعني من الدرجة الكاملة للسعادة سوى القبح الضارب عن اليمين وعن الشمال، وكأن بيوت الطوب الأحمر الكئيبة على الجانبين تتوقع إزالتها في يوم عاصف فلم تهتم بأية قيمة، محطمة الأخضر الذي كان سائدًا هنا في يوم ما ليس بعيدًا. قلت لكمال ولخالد، بعد أن عاتباني باعتبارها بيوتًا للفقراء، إنني أعرف أنها بيوت تحاول الحصول على شهادة فقر وابتزاز، من اشترى أرضًا هنا ليبنيها دفع مبالغ طائلة ولم يراعِ أية حرمة، فقط يزلزل النفس بالكآبة والإحساس بضياع البلد، وقد كان يمكنه على الأقل أن يطلي البيت من الخارج وأن يلتزم بمقياس لطوله فيما كانت تقطع المشهد عمارات على ارتفاعات شاهقة حمراء أيضًا وسيئة المنظر.

الطريق الدائري ذو أسفلت محطم ولا يستوي إلا في مناطق قليلة، وسيارات النقل الضخمة والميكروباصات تنطلق بسرعة مخيفة، ولا أثر لشرطي في أي مكان.

كان الطريق طويلًا قطعناه بالمناقشة وبإدارة «فكروني» لأم كلثوم من فلاشة خالد، وسألته عما إذا كان هذا الطريق أطول مما لو أخذنا طريق مصر الجديدة، فأكد أنه الأطول ولكنه من دون إشارةِ مرورٍ واحدةٍ وطريق مصر الجديدة غير مضمون.

وصلنا إلى نفق طريق القاهرة - الإسماعيلية الصحراوي، ودرنا يمينًا كأننا متجهون إلى مطار القاهرة الدولي وملاهي السندباد، ثم عدنا إلى الطريق صاعدين شمالًا، وكان صلاح أبو الخير يرشدنا حتى لافتة مدينة السلام. درنا عائدين مرةً أخرى ودخلنا يمينًا في اتجاه حي النهضة. ويبدو أننا أخطأنا وأطلنا علينا زمن الطريق بالولوج داخل مدينة النهضة لتستقبلنا حرائق القمامة أعلى قمة جبل صغير، وبالقرب منها أشخاص في أردية سوداء، وعندما دققت النظر لم تكن هذه سوى غربان تنتظر همود الجمر، وسألنا أحد المارة الذي أكد لنا أننا سرنا في الطريق الخطأ عبر مصانع وشركات شبه متوقفة عن العمل، وأعادنا إلى طريق قادنا إلى بوابة بلبيس أو «الكارتة» كما قال. وتابعنا صلاح أبوالخير مرة أخرى ووصف لنا كيفية الوصول إلى ميدان الطائرة، ولمحت على يساري لافتة زرقاء مكتوبًا عليها «أنشاص» فتذكرت المفاعل النووي الذي كان.

كان اللون الأخضر فادحًا على الجانبين فتحسست عيناي للمرة الأولى منذ خرجنا من القاهرة المنظر الذي كانتا تبحثان عنه وتنفست مخرجًا شيئًا مما يجثم على صدري، ولكنني سألت نفسي وأنا أحدق في الزراعات: هل يمكن أن أستغني عن القاهرة؟ ووصلنا إلى طائرةٍ ثانيةٍ كانت أمام الكلية الجوية، بعدها عبرنا كوبري بلبيس فوق ترعة الإسماعيلية ودخلنا إلى شارع عبد المنعم رياض لنصبح فعليًّا في بلبيس أخيرًا للعب دور طاولة مع صلاح أبو الخير الذي لا يمكن هزيمته كما أبلغني كمال.

بعد دقائق في الطريق المزدحم بسيارات النقل، انحرفنا يمينًا لنصبح أمام مزرعة أبوالخير.. كانت خلاء أشبه بمقلب للقمامة ترعى فيه الخراف، ما أصابني بالصدمة، ولكن في إحدى زواياها كانت تعريشة خشبية جميلة تظلل ما تحتها، وحول الظل «أصاري» عدة تخرج منها أعواد خضراء من الريحان والنعناع، وكان الوقت حارًّا، كنا في مطلع يونيو.

هب أبو الخير وخلفه بعض الأرائك المنخفضة ذات الكساء الأحمر مرحبًا بنا، ويجري حوله شابان مبتسمان يتحركان على مبعدة محددة منه، وعندما يقف فهما يقفان على أهبة الاستعداد. صافحت أبو الخير وتأملته. كان ستينيًّا، متوسط الطول ونحيفًا وبه صلع خفيف يكسره بشارب خفيف أيضًا، وينظر لنا بذكاء من تحت نظارته؛ مختبرًا ما إذا كنا في لقاء عابر أم صداقة ستدوم.

وقام كمال بتعريفنا مع إضفاء كل الألقاب الممكنة والسجايا المستحيلة على كل منا، وجلسنا وأمر أبو الخير شابيه بالشاي، ثم أشاح بيده لشيء خلفنا وكانا كلبين يتقدمان في ريبة فتراجعا من فورهما، وجلس وهو يسوِّي جلبابه الأبيض ويخرج علبة سجائره، ويقدمها لنا ولم يكن أحد منا يدخِّن السجائر لأننا أصحاب شيشة فنادى على أحد الشابين ليحضر لنا الشيشة ريثما يُجهَّز الغداء.

سألنا أبو الخير عما يجري في مصر، واتفقنا أنا وكمال على أن أيام مرسي معدودة، وأننا وقعنا على استمارة حركة جديدة اسمها «تمرد»..

وبينما نتحدث صفت سيارة بجوار سيارة خالد، فتهلل أبو الخير وقال لنا: إنها مفاجأتي لأحبائي من القاهرة، الدكتور عزت نجم أستاذ الطب البيطري في جامعة الزقازيق.. وقمنا ورحبنا بالرجل، الذي أصر قبل أن يجلس أن يتابع حالة الخراف أولا.. بدا الدكتور نجم شريكًا لصلاح وليس متابعًا لحالة خرافه، وتناهى إلينا صوته وهو يحدث أحد عمال المزرعة عن رش علاج معين لم أتبين اسمه، فيما بدا العامل مطرقًا في اعتراف بالإهمال.. ثم عاد إلينا بصحبة أبو الخير وجلسنا، وهو يؤكد ضرورة الرش وعدم الإهمال في النظافة.. ولكن أبو الخير ليأخذه بعيدًا شرح له أننا كنا نتحدث عن حركة «تمرد» ورد الدكتور نجم بأنه سمع عنها، ثم قهقه

بسخرية، وقال إن الشباب مدَّعي الثورية في بلبيس فعل كل شيء لكي يجمع ثمانية آلاف استمارة، وحتى إذا أصبحت عشرة آلاف ماذا تعني؟ وقلت إنها كالعيار الذي إذا لم يصب، كما يقال، فإنه سيصم الآذان، وإن «تمرد» مهما كان الأمر لهي تعبير عن موقف واسع رافض لمرسي. وجادلني أبو الخير في قانونيتها فأكدت له أنها، وإن لم تكن قانونية، فإنها رسالة قوية وابتكار ثوري مُهْدَى لمرسي وجماعته، ما يجعلهم في حاجة لكي يستفيقوا.

نظر إليَّ الدكتور نجم بغضب واستحال لونه إلى سواد، وتجاهلت نظرته القاسية فيما رمق أبو الخير متسائلًا عن هويتنا.. ثم نطق قائلًا إن هذه الوسيلة وغيرها مما تفعل جبهة الإنقاذ تَعَدٍّ على الديمقراطية والشرعية، بخلاف ما تضفيه وتقدمه من غطاء للعنف، وسخر من القوى الحزبية المدنية الرافضة للاحتكام إلى الصندوق. وتعلق خالد بفكرة الصندوق مؤيدًا الدكتور نجم، وأكد أنه يكفي أن يكون لدينا رئيس ملتحٍ ويصلي الفجر حاضرًا وهو ما سينفعنا به الله. فرد كمال بأننا كلنا مسلمون ومبارك كان مسلمًا والصلاة الاستعراضية حرام شرعًا لأنها تستهدف خداع الرعية. وتدخلت قائلًا إن الحاكم الكافر العادل والناجح أحسن للمسلمين من حاكم متدين فاشل. كان كمال متحمسًا وخالد يصده بدفاع مستميت عن مرسي، وطلب أبو الخير أن نتحدث بالعقل والمنطق.

ودقق الدكتور نجم بعينيه بعيدًا نحو الخراف ثم استأذن ليرى ما شأن خروفين اثنين انتحيا جانبًا في طرف المزرعة، في اللحظة التي قدم فيها شاب يحمل شيشة واحدة، ما يعني أنها ستدور علينا، ووضع أبو الخير مبسمًا ذهبيًا لسيجارته وبدأ يدخن بلذة، وطلب من أحد الشابين جهاز التسجيل لنسمع أم كلثوم. وقال بعد أن نظر إلى الجهة التي قصدها الدكتور نجم وكأنه يريد الوثوق من أنه لن يسمعه، إن أم كلثوم كلفته كثيرًا، كلفت والده تحديدًا ما كان يمكن أن يشتري به نصف بلبيس.. وسحب نفسًا عميقًا وواصل حديثه، مؤكداً أنه حضر وهو طفل صغير حفلة لأم كلثوم هنا في بلبيس، أما حفلاتها المذاعة على الهواء في الراديو في الخميس الأول من كل شهر؛ فكان يدعو أصحابه ويجهز قعدة بعشرات الجنيهات عندما كان الجنيه جنيهًا، قعدة بكل لوازمها من حشيشٍ فاخرٍ وأرقى أنواع الويسكي.

وعاد أبو الخير من ماضيه فورًا مع عودة الدكتور نجم إلى التعريشة؛ ليحدثنا عن أنها أيام وراحت، وفيما شغلت الحاسبة لأقدر عمر أبو الخير لأجعله تجاوز السبعين الآن بينما لا يبدو عليه الطعن في السن، قال له خالد إن تذكرها يجب أن يكون مقرونًا بالاستغفار من الذنب، فوافقه أبو الخير، وطلب أن يعود إلى حديثٍ منطقيٍّ حول مرسي. وقال وهو ينظر للدكتور نجم إن مرسي

حاصل على رسالة دكتوراه في علم الهندسة في حماية محركات مركبات الفضاء من جامعة أمريكية، وإنه بذلك يكون من العلماء، مرددًا الآية: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ .

انفعل كمال بشدة لحشر مرسي في هذه الآية الكريمة، وتدخلت قائلًا إن الآية تنطبق على مائة ألف مصري واخترنا أسوأهم، وإن الناس أيضًا ترفضه ليس لأنه متدين أو من العلماء ولكن لأنه حاكم فاشل. وعقَّب كمال عليَّ أيضًا من فرط انفعاله، ورفض أن أقول «حاكم» لأن الذي يحكم هو مكتب الإرشاد، ونظر بحدَّة إلى صديقه أبو الخير وإلى الدكتور نجم، وسألهما: ما يضيركما إذا وافق مرسي على انتخابات رئاسية مبكرة؟ أليس هذا صندوقًا أم أنه سيكون نعشًا؟

ورد الدكتور نجم بأنه ليس إخوانيًا، ولم يكن في يوم من الأيام، ولكننا إذا لجأنا إلى فكرة الانتخابات المبكرة، ستكون عادة وسننتخب كل عام رئيسًا جديدًا، وستعيش مصر في فراغ سياسي.

دائمًا كنت أرتاب فيمن يبدأ حديثه بأنه ليس من الإخوان، وهو ليس بالضرورة يكذب، وهو إن لم يكن منهم فعلًا فهو معهم، وبالتالي يدعم توجهاتهم.

قال كمال إنهم يريدون السيطرة على كل شيء في الدولة رغم أنهم لم يشاركوا في الثورة ولا يستحون من سُعارهم للحصول على

كل مكاسبها. وأشار كمال إلى وزير الثقافة الإخواني الذي أصبح على رأس وزارته، مؤكدًا أنهم سيسقطونه، وأن الاعتصام الذي بدأه المثقفون في مكتبه لن ينفض قبل إسقاطه. ورد خالد بأنه لن يسقط وأن الإخوان ومرسي سيستمرون في الحكم ثلاثين عامًا على الأقل مثل مبارك، لأن الناس تريدهم، وإذا كان لأعضاء جبهة الإنقاذ شعبية لنجحوا في الانتخابات.. وتدخلت بأن مرسي انتهى ولم يعد رئيسًا وأنه أدخلنا في دوامة أنا وهم، أو نحن وهم، ولم يقدم فيما يقرب من العام دليلًا واحدًا على أنه يمكن أن يقود البلاد، خُصوصًا بعد ثورة بحجم 25 يناير شارك فيها جميع المصريين وأخذها الإخوان لأنفسهم ولا بد أن يكون لهم نصيب حتى بعيدًا عن الصندوق لأن ثورة 25 يناير لم تقُم بالصندوق.

أُذِّن للعصر من مسجدٍ قريبٍ وقمنا نصلِّي خلف خالد، بعدها نُصبت طبليتان وأحضر الشابان صواني الطعام وجلسنا لنأكل ونحن نثني على الطعام قبل أن نتبينه، وأوصانا أبو الخير بطبق كبير من اللحم الجملي، وقال إن الدكتور نجم يعرف ولكنكم لا تعرفون أن بلبيس مشهورة باللحم الجملي، وتعد المدينة الأولى على مستوى الجمهورية، ثم أشار إلى فتة الملوخية وكان طعمها غريبًا ولكنه كان مستساغًا. وتحدث أبو الخير عن هذه المزرعة التي ورثها عن أبيه واضطراره لبيع أجزاء منها لأنه كان دائمًا صاحب مزاج - ونظر بسرعة إلى الدكتور نجم وإلى خالد - قبل أن يتوب الله عليه.

وعرض علينا أبو الخير أن نشرب الشاي المغلي على الحطب ورحبنا، وجاء شاب يقوم بالمهمة، وقال إنه بالكاد بعد أن خرج إلى المعاش لحق بهذه القطعة وهو يطورها الآن مع الدكتور نجم صديقه الحبيب وستأتون المرة المقبلة لتروا شيئًا آخر تمامًا، وأشار بأصابعه إلى أبعد نقطة ممكنة ودار بها ليقول إن كل هذه الأرض كانت له ولكنه سقط ضحية سماسرة الأراضي حتى لم يعد غير هذا الفدان وهمس بأنه عُرض عليه قبل ثورة 25 يناير مباشرة ستة ملايين جنيه. كان أبو الخير موظفًا في البريد وخرج على درجة «مدير عام» بعد أن تدرج من الشباك، أحلى أيامه كما قال، حتى المكاتب ورئاسة عشرات الموظفين، وذكرني بالأستاذ عبد الله سعيد وقررت الاتصال به بعد عودتنا من بلبيس.

15

ودعنا الدكتور نجم بعد الغداء وشرب الشاي نظرا لارتباط سابق لديه، وشعرت بندمه على قبول دعوة المجيء والتعرف إلينا التي ألح عليها صلاح أبو الخير، وبعد مغادرته اتفقنا على لعب الطاولة في المقهى الذي يرتاده أبو الخير.. نادى على الشابين فأحضرا له العباءة السوداء ذات الشريط الذهبي وتوجهنا عبر شارع عبد المنعم رياض فشارع جمال عبد الناصر إلى ميدان باتا، وكان أبو الخير يواصل الشرح عما كانت عليه هذه الأماكن قبل سنوات، ويلقي السلام على الكثير من المارة ومن الجالسين أمام دكاكينهم. وأوقفنا في الميدان الصغير ليصف خالد سيارته تحت معمل المختبر، وتحدث ساخرًا عن أنهم لم يجدوا سوى اسم شركة أحذية ليسموا الميدان باسمها.

ولما استفسرت قال لي أبو الخير إنه الحقد ومنع الخير والأنانية، فالأراضي التي كانت تصب إلى الميدان هي منشية أبو النجا ودوار الربع، وكان أولى أن يتم تسمية الميدان بأحدهما، فاصطدمت العائلتان لأيهما يكون اسم الميدان عندما نشأ قبل خمسة وأربعين عامًا، وكان الحل الذي وصل إليه الناس خلال استعار ذلك الخلاف: ميدان باتا.

كان الميدان صغيرًا ومشوهًا بالباعة الجائلين وفي غياب أية لفتة تجميلية، مثل المشهد الذي أراه يوميًّا في ميدان التوحيد والنور أمام المصلحة في شارع الوحدة بإمبابة. قطعنا الميدان لنجلس على «أوبرج البارودي»، واستقبلنا صاحبه إسماعيل مرحبًا، وأجلسنا في المكان المخصَّص لصلاح أبو الخير، وتبادلنا التعارف وجلب لنا عامل المقهى طاولة فورًا في اللحظة التي أذن فيها مسجدان قريبان أو أكثر لصلاة المغرب. فقام ثلاثتهم ليصلوا المغرب، وكنت نقضت وضوئي فانتظرتهم في المقهى لحين عودتهم. وبعد أن عاد صلاح وكمال بدقائق جاء خالد منفردًا؛ فهو الذي صلَّى في مسجد السادات لأنه وجد ضريحًا في مسجد الشيخ محمد أبو عيسى..

وخلال صلاتهم سألني إسماعيل عما يجري في مصر، فقلت له إن الإخوان لن تقوم لهم قائمة بعد الآن، وإنني أعتبر «تمرد» حصانًا أسود مثلما التسميات في كأس العالم، وستعيد استنساخ ثورة 25 يناير وأكثر، ربما برضا كل المصريين هذه المرة. ارتاح إسماعيل إلى حديثي، وقال إن رأيي سيسعد إيهاب المنشاوي من زعماء «تمرد» في بلبيس، ونادى على أحد الشباب خارج المقهى وقدمه لي.

شرح لي إيهاب أنهم جمعوا ثمانية آلاف استمارة «تمرد» موثَّقة حتى الآن، وأكد أن بلبيس كلها بل ومحافظة الشرقية جميعًا ستتمرد..

حدثني عن قوة مظاهرات الشرقية، وقال لي إنه شارك في كل المظاهرات حول منزل مرسي في منطقة فلل الجامعة في الزقازيق، ولم أكن أعرفها.

وقال لي إنه عضو في «ألتراس ثورجي» و«بلاك نايتس» قبل أن ينضم إلى حملة «تمرد» وإنهم تظاهروا هناك قبل تأسيس «تمرد» مباشرة دعمًا لاستقلال القضاء وتنديدًا بالجماعة، وإنهم يبدأون من منزل مرسي ثم مبنى المحافظة ويطوفون بمقرات الجماعة وحزب الحرية والعدالة، ويُسمعونهم هتافات «الشعب يريد إسقاط النظام» و«يسقط يسقط حكم المرشد». وسألته بحب استطلاع عن الهتافات الأخرى؛ لأعرف ما إذا كانت هي نفسها التي تتردد في القاهرة، فقال لي منتشيًا: «عايز سكر.. عايز زيت.. روح لمحمد مرسي البيت».. «يا إخوان يا مسلمين.. فين الشرع وفين الدين».. «مشينا مبارك وسوزان.. جه المرشد والإخوان».. وقلت له إنني وقعت استمارة «تمرد»، وسألته عن توقعاته، فأكد لي أنه بعد تأسيس «تمرد» أصبحنا أقوى ولنا هدف واحد وهو إسقاط مرسي وإجراء انتخابات رئاسية مبكرة، وقبل أسبوعين خرجنا في جمعة العودة للميدان من أمام مسجد الفتح في «المبرة» إلى منزل مرسي..

وسألته بعد أن لاحظت حركةً غير عادية في الميدان عن الوضع هنا في بلبيس، فقال لي إنهم يتظاهرون باستمرار والحركة اليوم

بسيطة، هي من أجل قطع الغاز الأسبوع الماضي، ولكنك سترى بلبيس أخرى في 30 يونيو إن شاء الله. وانقطعت الكهرباء وأظلم ميدان باتا فضحك إيهاب، وقال إنهم نظَّموا مسيرة بالشموع لشباب القوى الثورية بالمحافظة قبل أسبوعين إلى منزل مرسي، احتجاجًا على قطع التيار الكهربائي باستمرار، انطلقنا من أمام النصب التذكاري بالمحافظة، ثم اتجهنا إلى منزل مرسي. وقال إنهم يطالبوننا بترشيد الاستهلاك ويغرقون غزة بالكهرباء والغاز من أجل آخر العنقود حماس..

اقترب إسماعيل وقال لإيهاب إنني ضيف على الحاج صلاح أبو الخير، فنظر لي إيهاب بارتياب، وعاجلني إسماعيل بالقول إن كنت سألعب طاولة مع أبو الخير، وإن كنت أستطيع هزيمته.. رد إيهاب بأنه «بيقرص» ولم يعد أحد يلاعبه هنا.. وقاطعه إسماعيل بأن الجميع بات يتحدث في السياسة ومعظم الشباب الذين مع إيهاب لا يحبون أبو الخير بسبب إمساكه دائمًا العصا من الوسط، ولا يتعاملون معه أو مع من هم مثله، أما أنا، يواصل إسماعيل، فأراه رجلًا طيبًا مثل جميع المصريين يريد أن يمر البلد من الأزمة. فقلت لإيهاب إن من هم في مثل سن أبو الخير من الصعب أن يكونوا ثوريين، هم إصلاحيون بالضرورة، ولهذا كانوا متحفظين على ثورة يناير وربما يواصلون تحفظهم خوفًا من «تمرد»، أما موضوع

الطاولة فأنا سألاعبه للمرة الأولى.. حذرني إيهاب بشكل طقوسي من قدرات أبو الخير وأصابعه المحترفة في غمز الزهر، وشدد إسماعيل على أنني لو هزمته الليلة سيكون خبرًا في بلبيس كلها، بينما استغربت انصراف إيهاب فور وصول أبو الخير مستئذنًا، فيما رد سلام أبو الخير بعصبية.

نادى أبو الخير على إسماعيل ليسأله عما إذا كان ما زال يحتضن الشبان المغيبين الذين سيضيعون البلد، فسأله إسماعيل عما إذا كان ما زال إخوانيًا، فرد أبو الخير أنه وفدي أبًا عن جد، وسأله إسماعيل عن الظلام الذي نعيش فيه، فقال أبو الخير إن الفلول هم وراء قطع الكهرباء، وإن الأحوال ستكون أفضل بإذن الله لو أننا وضعنا يدًا بيد وبدأنا نتجه للعمل وليس للكلام، وتدخل خالد قائلًا: سنتحمل أي شيء من أجل بلدنا..

وعادت الكهرباء فخرج المقهى من العصور الوسطى لتظهر أناقة لم أكن أتوقعها في مدينة في الأرياف، وخرجنا لنجلس على مائدة على الرصيف وسط حركة الميدان، ووضعت طاولة قديمة نسبيًا ولاحظت أن صلاح أقام ظهره وكان به انحناءةٌ خفيفةٌ وأشعل سيجارته الأولى بمبسمها الذهبي، في حين نزلت لنا الشيش أنا وخالد، وجلست أمامه، واخترت اللون الأبيض، فقال لي كما تحب. وقبل أن نبدأ اللعب، نظر أبو الخير في عينيَّ بتركيز شديد

وأكد أنه يحب هؤلاء الشباب وأنه يخاف على مصر، وأنه سيذهب مع أي اتجاه فيه مصلحة مصر، وأن حزب الوفد في أصوله الفكرية كحزب للوطنية المصرية ليس له أيديولوجية محددة وإنما مصلحة الأمة المصرية فوق كل اعتبار.. هززت رأسي موافقًا ولكن كمال تدخل وقال له إنه يبدو كالإخوان فعلًا كما قال له إسماعيل، وإن عليه أن يغسل يده من أي تعاطف معهم، لأن قوتهم ليست في عددهم وإنما في عدد المتعاطفين معهم. وضحك أبو الخير وقال سأغسلها في ترعة الإسماعيلية.. لم يكن متعصبًا، هكذا لاحظت، هو كآباء وأمهات ما قبل ثورة يناير الذين كانوا يخشون بطش الشرطة، وما إن قامت الثورة حتى تركوهم ينامون في الميادين، أما الآن فهو مرتبك ومتردد ككل شيء في مصر..

لاحظت اهتمام أبو الخير بالهجوم بقواشيطه من دون تأمين قواعده الخلفية، فحاولت الفوز باحتلال الأركان، والاهتمام بأن يكون لي وصلات للعب، وتركني أحتل كل الأركان تقريبًا، ثم بدأ يحصل من الزهر على الأرقام التي يريدها، ولم يحدث أن تعطَّل قط بسبب رمية زهر غير مواتية، وبدأت أفقد خاناتي تدريجيًّا حتى لم يعد لي سبيل للمضي، واضطررت للتوقف كثيرًا لأن الأرقام التي يمكن أن تحركني لا تأتي، وهُزمت في الدور الأول بإحدى عشرة نقطة.

ودخلنا في الدور الثاني، وحاولت النظر إلى طريقة إلقائه الزهر حتى أقلده ولم ينفع الأمر وكان أيضًا يحصل على الأرقام التي تطابق أوضاعه وحاصرني تمامًا حتى لم أخرج من الخشب قط، وهزمني خمس عشرة.

وفي الدور الثالث، حاولت جاهدًا الإسراع بالخروج وبالتضييق عليه وساعدني الزهر كثيرًا وكدت أشعر بأن هذا الدور لي، ولكنه رغم ذلك وعبر ثلاثة دورجي متتابعة فاز بخمس ليصبح المجموع إحدى وثلاثين نقطة بالتمام والكمال.

وقمت متحيرًا من حصوله من الزهر على ما يريد، رغم أنه لا يفعل شيئًا ملموسًا بأصابعه، وظللت أتابع طريقة لعبه العادية وإلقاء الزهر أيضًا بطريقةٍ عاديةٍ، ولكن كل الأرقام تأتيه على طبق من فضة، وهزم كمال في عشرة من ثلاثة أدوار أيضًا، وطلب خالد فرد بأنه متفرج فقط ولا يمكن أن يلعب في وجود فطاحل. فجلست أمامه مرةً أخرى، وبدأنا اللعب وأُذِّن للعشاء فقام كمال وخالد للصلاة واستمررنا نحن في اللعب وكنت مشحونًا برغبةٍ هائلةٍ في الفوز وكان أن كسبته بثلاث ثم دخلنا الدور الثاني وكسبته بثمانٍ، وانقطعت الكهرباء في الدور الثالث، ولكننا استمررنا في اللعب على ضوء أعمدة الإنارة وكشافات الموبايلات، وفزتُ بثمانٍ أخرى، فقال لي هذا يكفي.. وبالفعل وقفت عند رقم تسع عشرة وهزمني ثلاثة أدوار متتالية ليأخذ العشرة.

وفضلت أن ألعب عشرة أخيرة، وأثناءها عاد كمال وخالد من صلاة العشاء وكان يأمر الزهر تقريبًا لأنني كنت أقول في سري إن أفضل الزهر إذا جاءه رقم معين فيلقي فيأتيه الرقم نفسه، فقمت من أمامه وقد هزمني ثلاث عشرات ليجلس كمال. ونظر أبو الخير لأصابعه المتسخة من الطاولة وطلب نصف كوب ماء وكأنه يطلب شيئًا معتادًا، وقال لي إنها عادته منذ كان في البريد، كانت الأكواب تأتي وترفع وشربنا كثيرًا لهضم الغداء، ووضع سلامة عامل المقهى كوبًا ممتلئًا حتى المنتصف بالماء وقال بصوت جهوري: «بوسته» فنظر له أبو الخير شذرًا في الوقت الذي وضع أصابع كفه اليمنى في الكوب، ولكنه صرخ من فوره، وقال: نار يا أولاد الكلب..

16

من دون قصدٍ منا، وبعد أن تركنا مسجد الكويتية عن يميننا، وكان الليل شديد السواد مع إضاءات متفرقة على الطريق وسيارات مسرعة، صعدنا على كوبري عبد المنعم رياض ووصلنا إلى ميدان الطائرة، ولكن أخطأنا أول خطأ جميل في يومنا هذا، حيث اندفعنا إلى الأمام في الطريق لنجد أنفسنا عند تلاقي طريق بلبيس بطريق القاهرة - الإسماعيلية الصحراوي، ربما كان أبعد ولكنه أكثر وضوحًا وأقل تعقيدًا، وحمدت الله في سري لأني لم أستجب لإلحاح آلاء في أن تصحبنا.

كان الصمت يلفنا والحزن تحت طبقاته بسبب ما جرى والذي لم نتبينه فورًا؛ إذ قال صلاح أبو الخير: تحفظوا على هذا الكوب ولا يلمسه أحد؛ ففيه ماء نار. وركزنا ضوء الموبايلات على أصابعه لأجدها مهترئة في بياض شديد، ولا أعرف كيف دفعنا إسماعيل إلى صيدلية زيتون، وعند دخولنا عادت الكهرباء واستبشرنا خيرًا، وقام الصيدلي من فوره ونظر إليها وسأل صلاح الذي قال له وهو يزفر بمبالغة إنه ماء النار، فأحضر الصيدلي الفازلين ودهنها وربطها

بالشاش ونصحه بالغيار عليها وعدم إزالة الجلد المحروق وطمأنه. بشكل أو بآخر، شعرت وكأن مجيئنا فأل سيئ، وتذكرت الغربان على هضبة النهضة، بينما قرر أبو الخير إبلاغ الشرطة، وانطلقنا في سيارة خالد إلى القسم ولكنه رفض اتهام أحد، وحضر إسماعيل ومعه سلامة عامل المقهى الذي اعترف بأنه وضع كوب الماء على المائدة ونادى «بوسته» لمداعبة الحاج صلاح، ولكنه حمله من هناك من عند النصبة ولم يملأه بنفسه، كان طلب الكوب وذهب بطلبات أخرى وعندما جاء وجد طلبات مائدة الحاج صلاح جاهزة وبها الكوب الممتلئ حتى نصفه فقط فقدمه له.

وتوجَّه سلامة إلى صلاح وسأله إن كان يظن بعد هذا العمر أنه يمكن أن يؤذيه ولم يتلق ردًّا. ولكن أمين الشرطة سأل صلاح مرةً أخرى عما إذا كان يتهم العامل ليعرضه على النيابة فنظر صلاح إلى سلامة ورفض اتهامه، فقال الأمين إن المحضر عمومًا سيُعرض على النيابة في الصباح ومن المؤكد أنها ستطلب تحريات المباحث والأمر لن يمر بسهولة. قال كمال ونحن في السيارة عائدون إنه لا يشك في العامل أبدًا؛ فهو لن يقطع رزقه من أجل حرق أصابع أبو الخير، وقلت إنه بدا لي أن صلاح له أعداء كثر؛ لقد تلافاه الشاب من «تمرد» وإن كنت لا أتهمه فهو شاب ثوري نقي لا تخرج المسألة عنده عن كونها خلافًا في الرأي، وقلت إنني لاحظت أن

أحدًا من رواد المقهى لم يقترب منه، فرد كمال بأنه يهزمهم في الطاولة، فنطق خالد مستغربًا: وهل هذا يورثهم كل هذا العداء؟!
وتذكرت حديث إسماعيل عن عدم قدرة أحد من أهل بلبيس على هزيمته وأن هزيمتي له إن وقعت فسوف تكون خبرًا. قال خالد بحسه كمحامٍ إنه يظن أن المسألة لها دخل بأرض مزرعة الخراف، وأن أحدهم يهدده.. اسألوني أنا. لم أعرف إلى أي شيء أميل أكثر، فالحرق كان قاصدًا الأصابع التي تأمر الزهر وهي أيضًا التي توقع على أوراق البيع، وقلت إنه أيًّا من كان وراء ما حدث فإنه شخص يعرف عادات صلاح جيدًا وليس بعيدًا عنه أبدًا.

لقد قال صلاح كلامًا كثيرًا وهو يتألم عن الحقد والحسد وقرأ المعوذتين، ثم إنه تحدث عن الفلول، ولم يكن يبدو ثوريًّا بأي حال، هو نفسه قال ونحن نتجادل في المزرعة إنه كان يفضل أن يبقى مبارك حتى شهر سبتمبر، وهذه إن لم تكن وجهة نظر مؤيدي مبارك فهي على الأقل تعبر عن مبدأ إصلاحي وليس ثوريًّا يريد قلب الواقع في الحال للخروج إلى واقع جديد، أما تأييده للإخوان فهو تأييد للسلطة أيًّا كانت، فيما يصر طوال الوقت على أنه وفدي وتجري في عروقه مبادئ الوفد الليبرالية. ولكننا تعجبنا من طريقة الأذى المبتكرة التي كشفت عن كائن بائس ليس صلاح أبو الخير وإنما أيًّا من كان سيتعرض لهذا الذي جرى. فقد عدنا من القسم

إلى منزله القريب من الميدان ولم يتركنا إسماعيل حتى وافقنا على تناول عصير القصب من عصير الشيخ في الميدان، وفي المنزل، وهو من طابقين تشغلهما أسرته، استقبلتنا زوجته بالنقاب وهي تكاد تتحرك، وكنت أظن أن للنقاب سنًّا معينة يُخلع بعدها عند المعتقدين به، وجلسنا في غرفة الضيوف ومن بابها المفتوح على الحجرات الداخلية انفتحنا على مأساةٍ تجعل السخط على من حرق أصابعه مضاعفًا، وشعرت بأن مجيئنا كان شؤمًا بكل المقاييس؛ لأن صلاح يقيم في هذا البلد منذ مولده ولم يتعرض لما تعرض له إلا يوم مجيئنا لزيارته، وأنه بالإمكان أن نصبح متهمين في أعين وضمائر بعضهم في وقتٍ ما إن لم يكن الليلة ففي قادم الأيام، وشعرت بالخوف وأنا أتصور حدوث ذلك.

لاحظ صلاح أننا ننظر لشابة خجول، وكانت هلعة ولكن صامتة وهي قادمة تتحرك بجانبها الأيمن لتجلس تحت قدمه وتخلع حذاءه وهو يقاومها بضيقٍ وتقبِّل أصابع قدمه، ينخرط صلاح عندئذ في بكاءٍ مُرٍّ ويرفع وجهه إلى سقف الغرفة مناشدًا الله. أخذتها زوجته برفقٍ وهي تتلعثم بكلامٍ غير مفهوم وخرجت فيما تحولت نظرة الحزن في وجهه إلى غضبٍ عارمٍ ثم عادت زوجته بصينيةٍ عليها أكواب من العصير وخرجت.

قدم لنا صلاح أكواب العصير بيده اليسرى وهو يزفر متنهدًا، ثم قال وهو يومئُ برأسه للداخل إنها ابنته هدى التي أكرمه الله فيها لتكون بركة البيت، ولدت بخلل في وظائف المخ ولم تكبر قط إلا جسدًا، ولكنه اعتبرها نعمة من الله، وتنهد وهو يقول إنها من أعادته إلى طريق الله ولولاها لكان شيطانًا رجيمًا، هي لا تخرج من البيت على الإطلاق ولا يراها أحد، وإن صديقه الدكتور عبد الستار أستاذ جراحة المخ والأعصاب يتابعها هنا، هو الذي يأتي خصيصًا من الزقازيق مرةً في الأسبوع، وقال: زوجتي ابنة خالتي وتعرفون زواج الأقارب، لكن لا أحد يرتدع، وتمتم: هي مشيئة الله الذي لا رادَّ لمشيئته.

ثم ابتسم للمرة الأولى منذ ساعات وهو يتحدث عن هدى التي قادته إلى طريق الهداية فتوقف عن الشراب والمخدرات وسافر إلى الحج، وقال إنها من تفهمه جيدًا وتحبه ويعرف أنها تدعو له، أما نحن - وقد تناوبت النظر إلى كمال وخالد - فكنا في حالة حزن مطبق، ووجوهنا شبه محنطة على نظرة أسى موحدة. ودق خبط قوي على الباب ودخلت امرأة مندفعة وألقت بنفسها في حضن أبيها وخلفها قدمت هدى ببطء ثم جلست تحت قدمي صلاح وظلت مركزة عينيها عليه وحده باكية في صمت وفهمنا من حديث صلاح للمرأة الشابة أنها ابنته المتزوجة في الإسماعيلية وأنها جاءت مسرعة بعد أن علمت من والدتها بما جرى وربما نحن في الصيدلية بعد.

لم يُرِد أي منا أن يعود إلى منزله وتوجهنا تلقائيًّا إلى مقهى «نور الصباح». كنا متأخرين وبسطنا الطاولة بيني وبين كمال وكانت منضدة قريبة تتحلق حول توفيق، من رواد المقهى القدامى، الذي شرح لنا يومًا تاريخه القريب وحضوره افتتاحه قبل نحو عشرين عامًا في بداية التسعينات وأظن أنه ذكر اليوم والساعة، كما تطرق لرغبة مخرج مشهور في تصوير مسلسل فيه ولكنه لم يصل لاتفاق، وكان توفيق يقرأ شعرًا ويرفع صوته ممسكًا بصحيفة:

«خروف العيد نطحني وناوي يدبحني، بسعره الغالي جرحني ومأمأ لي وشوّحلي: مين انت عشان تاكل لحمي؟ مين انت عشان تجيب تمني؟ بسعري الغالي هشويك وأحطّم كل غناويك، ولا يمكن هغذيك ولا صوفي يدفيك، ولو شفتك تبص بعين على صوفي وع القرنين، هسنّ قُروني وبحدّين ف صدرك وانزع الكتفين، كفاية عليك صوتي العالي، وانا صوتي كمان غالي، ما يسمعنيش غير الشاري، يكون عنده حساب جاري».

عرفنا فورًا أنه من قصيدة «الأستاذ والخروف» التي ألقتها تلميذة في مدرسة ابتدائية في الغردقة أمام وزير التربية والتعليم وكنت شاهدت والدها مؤلف القصيدة مع محمود الورواري على «العربية» ليؤكد أنه كتبها في زمن مبارك. بشكل أو بآخر فإن القصيدة صادفت هوى لدى المعارضة التي كانت تجمع خيوطها وتتوحَّد

ضد مرسي، وكان بعضهم رسم خروفًا على أسوار قصر الاتحادية وبات الإخوان يُعرفون بالخرفان، وهي الصفة التي أغضبتهم أكثر من أي شيء آخر.. وابتسمنا أنا وكمال فقد كنا قادمين من فورنا من مزرعة خرفان..

حياهم كمال كعادته عندما يرى أحدًا ضد الإخوان، وكان معظم المقهى كذلك، فيما لم أعد أرى بعض من كان يهاجم باسم يوسف ويطلب من مدير المقهى تغيير القناة ويظل يسب في البرنامج ومقدمه. لم ألحظهم، ربما غيَّروا موقفهم، ربما سكتوا من الموجة العالية ضد الإخوان لتمر، لأنني لم أكن أعرف وجوههم جيدًا. كنت لا أنظر إلى كثيرين ممن يتكلمون في السياسة ونحن في المقهى تفاديًا لافتعال مشكلة وتحويل المقهى من مكان ننسى فيه همومنا إلى ساحة لتفجيرها، وهزمني كمال يومها وكنت مُكْتَئِبًا ألعب بلا حماسة..

17

بعد «تمرد»، سرعان ما اختفت حركة «لو بتكره الإخوان.. اضرب كلاكس».. «تمرد» كانت على كياسة ولافتة للنظر وتطلب بناء على لائحة محددة إجراء انتخابات رئاسية مبكرة.. قرأت الاستمارة جيدا عندما قدمها لي حمدي عبد العزيز في المأمورية ولاحظت أهمية توقيعي عليها بعد أن نزل حمدي إلى الطابق الخامس ليصور بطاقة الرقم القومي ويدبس الصورة مع الاستمارة، وقال لي إنهم يفعلون ذلك حتى لا يشكك أحد في التوقيعات.

لم أعرف من وقَّع مثلي في المأمورية، ولكنني لاحظتُ أن الغالبية وقَّعت وقلة من الذين حرصوا على إظهار موقف معلن أمام زميلنا الإخواني ياسر نجيب قالوا إنه لعب عيال ولم يوقعوا. لم يكن يعنيني، أنا وقَّعت بحماس فلم أُنصَف في أي عصر لأخاف من الإخوان، واتصلت بعبد الله سعيد لأطلب لقاءه وأسمع تحليلاته، ولكنه، كما أحسست عندما وقفت أتابعه من ميدان لاظوغلي وهو يغيب، كان قد مات قبل أيام ولم أعرف.. لم يرحل باكرًا ولم يصل بعد إلى أرذل العمر، ولكنني في كل الأحوال لم يتسنَّ لي السير في

جنازته. شعرت بحزنٍ وقد انقطع مدد حي من وجودي أنا شخصيًّا؛ فقد كان يمثل بعض الماضي فكان يعفيني من الحنين إليه، وكان لقاء واحد يكفي لإيصال ما انقطع وجعل حياتي صفحة مبسوطة من دون ثنيات وكأنها جرافيتي عريض مما يرسمه الشباب على الجدران هذه الأيام.

اتصلت بآلاء وسردت لها على التليفون ما جرى في بلبيس، وعن وفاة عبد الله سعيد وتواعدنا على اللقاء مساء، واتصلت بخالد فوجدته مرتبطًا بقراءة فاتحة ابنة شقيقه، بينما أبلغني كمال بأنه سيكون في اعتصام وزارة الثقافة الليلة، وفهمت منه أنه ليس اعتصامًا للموظفين فقط إنما لكل الأدباء والفنانين والمثقفين، فاتفقنا على اللقاء في مقهى في الزمالك ثم نتجه إلى هناك، وأعدت الاتصال بآلاء للاتفاق معها على المرور بنا في الزمالك ثم نتجه للاعتصام فرحبت على الفور.. سرنا على الأقدام من مقهى «رباعيات الخيام» إلى شارع شجرة الدر، وكلما اقتربنا شعرنا بالنشوة من أصوات موسيقية صادحة تأتي من نهاية الشارع عندما يتقاطع مع شارع أم كلثوم حيث الفيلا التي تشغلها وزارة الثقافة..

شرح لي كمال أن وزيرًا إخوانيًّا هو الدكتور علاء عبد العزيز تولَّى الوزارة قبل شهر وأطاح بالقيادات ليضع مكانها موظفين من الإخوان فقرر المثقفون الاعتصام بعد توليه بثلاثة أسابيع بالضبط..

وأوضحت آلاء أن المسألة باتت أكثر من موظفين يأتون مكان موظفين وأخونة المناصب الوسطى في الدولة بعد أخونة المناصب العليا وإنما الرغبة في القضاء على الثقافة والفن في مصر، حيث القوى الناعمة التي كانت دائمًا موجودة للدفاع عن الهوية المصرية في أحلك الأوقات.

هززت رأسي، كنت وقَّعت على استمارة «تمرد»، وبات هذا بالنسبة لي موقفًا ثوريًّا وفي الوقت نفسه طلاقًا بائنًا مع الإخوان، ولم أخف، لأنني لم أكن أنتظر شيئا منهم ولا من غيرهم، فالحكومة، كما كان يقول دائما زميلي في مأمورية المعادي خالد إسماعيل، وظيفتها التعيين وليس الرفت، ووقفنا وسط حشود من الشباب لهم شكل مختلف عما أراه في المظاهرات، ذكور وإناث غالبيتهم في ثياب أنيقة ويتحدثون فيما بينهم ومع الآخرين باحترام، ويهتفون أيضا باحترام..

نظرت حولي لأجد لافتات وشعارات على الجدران: «اعتصام الثقافة».. «الفن مقاومة».. «ثورة ثورة حتى النصر».. لافتة أخرى على حائط عمارة قديمة «الشعب يريد محاكمة الإخوان الإرهابيين».. ولمحت على شجرةٍ لافتةً كُتب عليها «أمريكا تدعم الإرهاب»، وفي الجهة المقابلة على النيل كُتب «اعتصام الثقافة حتى تحرير مصر في 6/30».. وعُلِّق على عمارة ليبون لافتة: «خان.. يخون.. إخوان..

انزل 6/30 وأسقط حكم الخرفان».. وجرافيتي عريض بالأحمر والأسود: «دم.. فساد ورصاص.. همة شهيد وقصاص».. وقبلها مباشرة تحت لافتة شارع شجرة الدر جرافيتي رسم: «اللي كلف ما ماتش».. ولافتة «سلم نفسك يا مرسي»..

اقتربنا من منصة يقف فوقها موسيقيون معظمهم من الشباب وخلفها صورة «بورتريه» وحيدة، سألت كمال عنها فقال إنها لإبراهيم أصلان مؤلف فيلم «الكيت كات»، الفيلم مأخوذ عن روايته «مالك الحزين» لكن غاب اسم الرواية الأصلي مع رواج الفيلم الجميل، وتحت الصورة علقت لافتة: «ارحلوا» وثلاث صور كلها عليها علامة «X» وهي من اليمين إلى اليسار للشاطر وبديع ومرسي.. كنا نكاد نقف بجوار بوابة الوزارة، وبدأ الموسيقيون فوق المنصة في غناء حماسي:

يُحْكَى أنَّ.. أنَّ إيه.. سرقوا بلادنا.. ولاد الإيه..

يُحْكَى أنَّ.. كان يا ما كان.. سرقوا بلادنا الأمريكان..

يُحْكَى أنَّ.. جيل ورا جيل.. سرقوا فلسطين إسرائيل..

يُحْكَى أنَّ.. يا أحفاد.. أمريكا دخلت بغداد..

يُحْكَى أنَّ.. يا حلاوة.. أمريكا بتضرب بغباوة.. راح يدخلوا بغداد العصر.. والمغرب راح يدخلوا مصر..

انفعلت معهم بالتصفيق وهم يواصلون:

يُحْكَى أنَّ.. أنَّ إيه.. شعبنا مسك النور بإيديه..

يُحْكَى أنَّ.. كان يا ما كان.. اللي أراده شعبنا كان..

يُحْكَى أنَّ.. جيل ورا جيل.. مصر اتولدت من التحرير..

سألت همسًا والأغنية لا تزال تصدح وتحصد انفعالًا حماسيًّا: لمن هذه الأغنية؟ فشرحت لي آلاء أنها لفرقة «إسكندريلا»، التي أسسها حازم شاهين، وهي بدأت في الإسكندرية من قبل الثورة..

قادنا كمال إلى الداخل فوجدنا مجموعة تجلس في الحديقة الصغيرة على اليسار، ثم صعدنا سلمًا دائريًّا من الرخام الأبيض، ودلفنا من باب حديدي عالٍ إلى داخل المبنى، وأشار كمال إلى غرفة، وقال: هذا مكتب الوزير.. لفتتني الكتابات على الباب والجدران، فجذبتني آلاء من يدي، وقرأت بصوت هامس، وهي ملتصقة بي: قصيدة بيرم «دولة الإخوانجية»، وقرأت:

كفاية يا مصر لو يبقى الهضيبي وأعوانه على عرش الإمارة..

ثم قالت: انظر.. أحمد فؤاد نجم، وقرأت:

يا أجهل شعوب الأرض اخترت ليه طرطور؟

أراجوز في إيد مرشده شايل لقب دكتور..

وقالت: محمد مرسي..

وواصلت بإشارة من أصبعها إلى رسومات، وذكرت اسم محمد نديم وأسماء أخرى، وتابعنا بصمت قراءة ملصقات ورؤية رسومات على باب الوزير.. وعلى الناحية الأخرى قال كمال إنها غرفة الاستقبال الخاصة بضيوف الوزير، وهي أصبحت الآن غرفة التنظيم والإعاشة، وقرأت لافتة كتب عليها: «أهلًا بكم في عصر الضلمة»..

ابتعدنا عن كمال قليلًا وكان كثيرًا ما يتوقف كعادته لمصافحة أو فتح حوار مع أحدهم وخرجنا إلى الشارع، ووقفنا مرة أخرى تحت المنصة التي ستقدم أغنية، قال متحدث إنها جديدة باسم «تمرد» غناها كريم سامي مغاوري، ابن الممثل المعروف، في فيلم «الساحر»، الذي باع حصانه مصدر رزقه الوحيد ليعالج ضعف بصر ابنه:

أنا فنان أنا متمرد.. ضد مرسي وحكم المرشد..

جُلْتُ بنظري في المكان مرةً أخرى لأقرأ بانبهار المزيد من اللافتات: «تحيا مصر.. تحيا مصر.. ما تعبناش.. يوم 30 العصر الثورة ح تحكم مصر.. الشعب يريد محاكمة مرسي الإرهابي القاتل الخائن».

ولافتة سوداء على سور الوزارة تحمل عبارة: «سرقت من قلب الشعب الفرحة.. سرقتها طيور جارحة.. أكلت من خبزه أمس وباعوه أول أمس»، للشاعر بهاء الطيب..

ختمت المنصة غناءها بـ«بلادي.. بلادي.. لك حبي وفؤادي» وسط حماسة كبيرة وهتاف الجموع: نازل نازل يوم 30، ونظرت بجواري لأجد أحدهم ملتحيًا وزوجته منتقبة وطفلة فوق ذراعها تحمل علمًا صغيرًا لمصر يغنون أيضًا ودققت النظر في عين المنتقبة لأجد دموعًا تذرفها مع الغناء..

لمحت كمال يتحدث مع أحدهم، بينما كان ينظر إلينا فباعدت ما بيني وبين آلاء وكنا شبه ملتصقين من الأكتاف ولم أكن لا أنا ولا آلاء ننتوي إطلاع كمال أو خالد على ما بيننا، لم يكن ضروريًّا، بل الأكثر من ذلك أننا كنا نستمتع بخداعهما طوال الوقت..

وبعد أن يَئِسَ كمال من جني ثمار نظراته المختلسة إلينا ترك محدثه، وعاد ليقول إنهم كل ليلة ينظمون هنا بخلاف الاعتصام فعاليات ثقافية ويأتي شعراء لإلقاء قصائدهم وكذلك مغنون وملحنون.. وانسحبنا إلى سيارة آلاء وقررنا الذهاب إلى «جوهرة الخليج» وأفشلنا اختبارًا سريعًا فرضه كمال وهو يلح على العودة إلى منزله بإصرار جاد على أن نذهب جميعًا إلى المقهى أو نتفرق جميعًا، فوافق على المجيء مشترطًا أولًا أن نمر على «طازة» لجلب ساندويتشات فول وطعمية وبابا غنوج وأن نأكلها في السيارة..

18

صحوت من نومي في اليوم التالي مهمومًا ومستغرقًا في أفكار عدة ليس أقلها اعتيادي في الفترة الأخيرة أن أفاجأ بأنني ما زلت على قيد الحياة، وبدت الأيام وكأنها ليست لكي تعاش وإنما لكي تمر ويتم تسديد خاناتها في نتائج التقويم. ولكن كان ما حدث بالأمس يشغلني، كان احتفالًا حقيقيًا برغبة الموجودين أمام وداخل وزارة الثقافة في الحرية وعدم تصديقي أنهم يستطيعون، لقد شاهدت كائنات ليلية حالمة مصرة وحزينة أمام طوفان يرى أنه بوسعه أن يفعل أي شيء باسم الدين. وكنت أعتبر أن الإخوان وصلوا إلى الحكم لكي يظلوا فيه إلى الأبد، ولكنني رغم ذلك تماديت معهم ليلة أمس وقلت لآلاء وكمال على «جوهرة الخليج» إنني أميل إلى أن المعتصمين سينجحون ولكنني لا أعرف كيف، ورغم عملي في الضرائب وعدم قناعتي بجمع الأموال من الناس ورؤيتي لهم وهم يتهربون بكل الطرق وتشاؤمي الدائم فإنني لاحظت أنهم في تونس نجحوا لأنني شاهدتهم يغنون «إذا الشعب يومًا أراد الحياة» في الشارع خلال ثورة الياسمين، ثم إنني كنت أمر بميدان التحرير وقبل تنحي مبارك فوجدت الناس يغنون أيضًا، والآن هم يغنون أمام وزارة الثقافة.

شككت آلاء مثلي في إمكانية حدوث تغيير فوري، ولكن كمال أصر على أن الإخوان ستتم إزالتهم ولن تقوم لهم قائمة بعد اليوم. وسألتني آلاء عن الغناء الذي تحدثت عنه واكتشافها اهتمامي به، فانتقلنا إلى منطقة أخرى وظللنا نتحدث عن أغنيات لأم كلثوم وعبد الحليم وفايزة ونجاة ونستعرض قدراتنا في الحفظ، وتحدثت آلاء عن تسجيلات نادرة لكل هؤلاء وقالت لنا إن لديها تسجيلًا لـ«ياللي كان يشجيك أنيني» في دمشق يجعلها تبكي من الأغنية وعلى دمشق التي زارتها في أحد الأصياف مع أسرتها وهي مراهقة، فأعادتنا ملاحظاتها إلى السياسة ثانية، وقال كمال إن الإخوان يخططون لحكم سوريا أيضًا.

فكرت ذلك الصباح في صلاح أبو الخير، وقررت الاتصال به وأنا في طريقي إلى المأمورية، لقد اشتغلوا عليه كثيرًا لتحطيمه، هكذا الحياة تأكلنا، ماذا تقدم الحياة غير ذلك؟! والمشكلة أن الوقت لا يتسع للشرح أو التبرير، للرد وأخذ الحق، للإقرار ومن ثم للانتقام، والذي يجعل كل الأمر لا جدوى فيه أنه بعد كل ذلك.. لمن سنوجه العتاب؟ ومتى يصل إلينا الاعتذار؟ سيكون من نعرفهم قد مضوا أو قضوا وكذلك نحن، أما الشحن والتأهل للانتقام فلن يخرجا عن حيز الصدر ليكون فعلًا حقيقيًّا في أي يوم من الأيام، ما يجعل مجرد التفكير فيه انتقامًا مجانيًّا.. رد عليّ صلاح متماسكًا كما رفع

صوته عاليًا للترحيب وهو الذي اعتذر عما حدث، وفكرت في أنه لو أن لي إحلال صلاح محل المرحوم عبد الله سعيد في الاقتراب منه والسماع له واستشارته في أموري، فإنني سأجد نديمًا له رأي ورؤية، وقررت مداومة الاتصال به ومد جسور علاقة إنسانية معه، فقد سحرني بصوته المرحب الذي بدا متجاوزًا لأزمة كان يمكن لها أن تبقيني حزينًا أبد الدهر. ثم إنني مسحور بعلاقته بابنته المعوقة، ولن أنسى نظرتها له التي جمعت عصارة حزن الدنيا وهو كثير، وهي تنظر لكفه المربوطة بالشاش ولم تكن رأتها وهي مهترئة، فقط كانت تنظر إلى عينيه لكي تدرك ألمه ولكن أيضًا تنظر بعشق لرجل بدا أنه كل ما لها في الوجود. اتفقت مع صلاح على أن يجمعنا لقاء قريب في القاهرة بعد أن تكون يده قد تحسنت وأوصيته بعدم الإهمال ووافق وطلب منا أن نحدد له الموعد في غضون الشهر المقبل بعد أن تنتهي مظاهرات 30 يونيو، مؤكدا أنها ستنتهي على خير وأن مصر ستكون بخير دائمًا، وأنه لن يحدث شيء مما يدور في صدور الناس من مخاوف، ولما سألته إلى أي جانب سيكون الخير الذي يتحدث عنه، لأنه لن يعم الجميع، أكد لي أنه سيكون خيرا لصالح مصر.

آثرت ألا أواصل الجدل معه في الشأن السياسي لأن الاتصال لم يكن بهذا الهدف، كما أنني لم يكن معي رصيد كافٍ في الموبايل..

بعدها اتصلت بآلاء وكان هاتفها مغلقًا، وعرفت أنها نائمة وستشغل الهاتف بعد أن تستيقظ وسترى رقمي وتطلبني. وقد كان.. طلبتني وأنا في المأمورية وتركت مكتبي وخرجت إلى الصالة وانتحيت جانبًا وسألتني كيف أصبحت وحكيت لها، فقالت إن صوتي شديد الكآبة وإنها ستذهب بعد صلاة العصر إلى الخلوة واتفقنا على اللقاء أمام مسجد السيدة نفيسة في الثالثة ظهرا. طلبني فاروق سليمان وقال لي إنه انتهى من إعداد السطح، وأصبح الجلوس فيه قطعة من ألف ليلة وليلة، وابتهج وهو يقول ذلك، وسألني: ولماذا لا نسميه «ألف ليلة وليلة»؟! وقال إن الأمر قد انتهى وسيكون ذلك اسمه. فرحت باتصاله وعاودت الاتصال بآلاء وقلت لها إنني سأذهب بها إلى مكان رائع الليلة بعد الخلوة سيكون مفاجأة، ووافقت وقالت إنها تحب المفاجآت ولن تسأل وستغمض عينيها وهي تقود السيارة حتى نصل إلى هناك. وفكرت كذلك في أن أصحبها في أحد الأيام إلى وادي الريان فسوف تسحرها حتمًا البحيرة الساجدة تحت الجبل في مواجهة الشلالات الصغيرة، وانتويت الاتصال بخلاف إبراهيم ولكنني أجلت الأمر لوقت آخر.

قبل أذان العصر، كنت هناك واقفًا أمام باب مسجد السيدة نفيسة ووصلت آلاء بسيارتها بعدي بدقائق وركبت معها ودارت في الميدان وخرجت إلى مجرى العيون ثم انطلقت يسارًا في صلاح

سالم واعتلت كوبري السيدة عائشة.. عندها ارتفع أذان العصر، ثم التزمت يمين الطريق، وانحرفت باتجاه المقطم، وعملت دورة صغيرة لنكون على الأوتوستراد، فيسارًا فوق كوبري التونسي، ثم درنا مرة أخرى عائدين، وقبل مطلع الكوبري دخلنا في شارع مترب إلى اليمين وفجأة بت في منطقة هادئة لم أرَها من قبل ولوجًا إلى سفح جبل المقطم. وصلنا في الحال إلى ميدانٍ صغير يعطي انطباعا بالسعة وأوقفت آلاء السيارة أمام مسجد له هندسة معمارية جميلة ومريحة، وقالت إنه لسيدي أحمد بن عطاء الله السكندري، وأخرجت آلاء حجابًا أبيض من حقيبتها ولفت به رأسها، ونزلنا من السيارة ودخلنا إلى المسجد بعد صلاة العصر، وكان بضعة مصلين لم يغادروا بعد، ودخلنا إلى الضريح، وقرأنا الفاتحة، وصليت العصر، ثم فتح لنا الشيخ محمد الباب الحديدي من غرفة الضريح إلى شارع جانبي خلف المسجد إلى ضريح سيدي الكمال بن الهمام الملاصق. وقالت آلاء التي تلبَّسها دور المرشد السياحي إن سيدي الكمال كان قد جاء في زيارة ذات يوم لمقام سيدي أحمد السكندري وظل يقرأ من سورة هود حتى: «**ففيهم شقي وسعيد**»، ورد عليه سيدي ابن عطاء من القبر بصوت عالٍ: يا كمال ليس فينا شقي، فاعتكف الهمام هنا حتى مات وأمر في وصيته بأن يدفن بجواره ولكن أقل من سيده بخمس درجات، أما المسجد فلم يشيد إلا في بداية السبعينيات على يد تاجر من الشرقية.

كان الشيخ محمد فتح لنا المقام، ونزلنا العتبات الخمس، ولاحظت أنه طرق على الباب حتى جاء الإذن ودخلنا معًا غرفة فارغة إلا من ضريح منخفض بكسوة زرقاء فيما سادت رائحة زكية وشغلنا مروحة كهربائية وإضاءة وقرأنا الفاتحة، ثم وضعت آلاء المسك في مجمرة فضية، وأخذنا مُصْحفين من شباك صغير وجلسنا على الأرض، وقالت إننا سنقرأ «هود» و«يس» وبعد أن انتهيت كانت آلاء سبقتني وقد أغمضت عينيها مسندة رأسها إلى الجدار وبدأت تتنفس وهي جالسة على أرضية الغرفة براحة وهدوء وانسجام.

أما أنا فقد أحسست بفراغ شديد ولم أفهم من وقوفي هنا سوى أنني في المكان حيث كان يقيم ثم دفن رجل طيب خصه الله بأن يتذكره الناس في الدنيا إلى أمد طويل ويدعوا له وليس أكثر من ذلك، ولكن ما أثارني هو السكينة في المكان، والاختفاء بعيدًا عن الناس، وعلى ضيقه وتصوري بأنني في محارة أو غرفة قيادة في طائرة فإنني شعرت بسعة في المكان وثراء رغم بساطته المفرطة، ولكن في كل الأحوال نظافته الشديدة. خرجنا وسألتها عن شيخها فقالت إنه لا يأتي يوم الأحد، وإنه ليس شرطًا أن تلتقيه في كل مرةٍ. وجاء عم محمد خادم المسجد وأغلق الباب وخرجنا إلى الميدان، وقالت لي آلاء وهي تشير إلى استراحة صغيرة على يمين الخارج من مسجد ابن عطاء إن السيدة نفيسة هي أول من راحت تختلي هنا

تحت سفح جبل المقطم، وهنا الخلوة الخاصة بها وليس المسجد الذي دفنت فيه. وقطعنا الخطوات القليلة ما بين مسجد ابن عطاء وخلوة السيدة نفيسة. ووقفنا على الباب الحديدي المغلق وأدهشني ما قرأت على لوح رخامي: «مقام العارف بالله سيدي عبد الله بن أبي جمرة رضي الله عنه سلطان المشرق والمغرب»، وفوقها مباشرة لوحة أصغر كتب عليها «مقام سيدي محمد سيد الناس». وقالت آلاء إن أبا جمرة هو صاحب «مختصر صحيح البخاري» وقد اختلى في المكان، واتُّهم بالجنون ودُفن هنا. وأشارت إلى موضعٍ صغير على اليسار، وقالت إن السيدة نفيسة أول من جاء إلى المكان أيام كانت في مصر، وتكالب الناس على زيارتها في منزلها ومكانه الجامع حاليا، وأمر الحاكم بيومين فقط لزيارتها كل أسبوع على ألا يقترب أحد من خلوتها هنا لتتفرغ للعبادة.

وعدنا إلى السيارة، وقبل أن نركب أشارت آلاء إلى مقام ابن دقيق العيد شيخ الإسلام قاضي القضاة تقي الدين محمد بن علي بن وهب الحسيني القشيري، وقرأت كل هذا على قطعة من الرخام الأبيض.

أدارت محرك السيارة وخلعت الحجاب وقالت لي إن هذا المكان عندما جاءته أول مرة لم يكن هكذا، إنه تغير فجأة وتم تجديده بالكامل على أحسن ما يكون، وهي لا تعرف من ولا كيف،

أحدهم تبرع وفعل ذلك. وقالت إنها هنا تخاف من عدم قدرتها على العودة إلى بيتها لأنها تغفل فعلًا وليس مجازًا. تدخل إلى هنا مملوءة بهموم الدنيا ولا تخرج إلا بيضاء من غير سوء، وقالت إن هذا ما يحدث لها ولا تجزم أنه يحدث لغيرها. وسألتها إذا لم يخرج الزائر المهموم كصفحة بيضاء فردت بيقين: إن الخطأ سيكون في الزائر نفسه. ثم تنهدت وواصلت أنها تصل بها الدرجة من الاغتسال الداخلي إلى أنها قد ذهبت مرات في نوم عميق، وقالت إنها ليست درويشة، إنما تأتي إلى هنا رغم مشاغلها لتزيد روحانيتها وتعيد ترتيب الوقت وربما تعديله، ولما أبديت استغرابًا أومأت لي بعينيها وقالت: إن أهل الخطوة لهم مفهوم خاص للزمن.

مرة ثانية تأخذني آلاء إلى حوار لا أفهم منه شيئًا ولا أستطيع تكذيبه، مثلما تحدثت معي سابقًا عن التوصل إلى علم الاستشعار والتحكم عن بعد طبقًا لمعايير صوفية. أخذنا ساندويتشات من «طازة» في شارع التحرير، حسب طلب آلاء، وأكلناها في السيارة، وأشرت إليها بالتوجه نحو الطريق الدائري من ناحية المنيب حتى نصل إلى مزرعة الخيول، كان الطريق سلسًا واستقبلنا فاروق بترحاب بالغ، وبدت آلاء مبهورة، وقالت لي إنها رأت خيولًا بيضاء في غفوتها عند سيدي الكمال. وتحدث فاروق عن جمال المكان من فوق السطح ووصلنا بسلم أسمنتي في الوقت الذي سمعنا أذان

المغرب من مسجد قريب، وتلاقى فاروق بشكل سريع مع آلاء عندما قال: كل سنة وأنتم طيبون، الليلة ليلة النصف من شعبان. بدت آلاء وكأنها تذكرت فجأة وأسعدها التذكير، وسألني عن رأيي في التجديد، ولم يكن في وسعي إلا أن أثني عليه، ودعمت ما ذهب إليه من أن المكان بهذا التجديد بات لائقًا بأحد فصول ألف ليلة وليلة. وأرسل فاروق في طلب الشيشة والمشاريب التي صعد بها أحد العاملين لديه وتركنا مسحورين بالأهرامات والقمر الذي كان بطبيعة الحال بدرًا، وشعرت بأن أية خطة لترك آلاء لن تجدي.

كانت الجلسة التي فضلنا أرضية، سجادة زرقاء اللون على بلاط السطح ومجموعة من الوسائد القطنية المغلفة بقماش أصفر وأحمر، فيما مقاعد متناثرة تحت مظلات خشبية، ولكننا بمفردنا. اقتربت آلاء ووضعت رأسها على كتفي وفي يدها اليسرى الشيشة الوحيدة التي نتناوب عليها وضممتها بحنان بالغ من دون النظر إليها، هي أيضا لم تكن تنظر إليّ.. كنت أطالع الأهرامات والبدر ينزلق في السماء قادما من يسارنا بعد أن كاد يتجاوز أشجار النخيل، فيما وقع أقدام بعض الخيل تضرب بإيقاعٍ متقطعٍ فوق أرضية المزرعة..

القاهرة

أغسطس 2013

للكاتب:

لمس الأكتاف - مجموعة قصصية - 1989.

تعاسات شكلية - مجموعة قصصية - الهيئة العامة لقصور الثقافة - 1998.

"هزمتها في العَشَرَة الأولى بصعوبة ولو كانت أكثر خبرة لأخذت مني العَشَرَة؛ لأنني ببساطة فقدت تركيزي الذي كان منشغلاً بأنوثة طاغية تجلس أمامي، متاحة، ومشتهاة في أفضل مكان وظروف يمكن أن تجمع رجلاً وامرأة في العالم، ولم أعرف كيف أبدأ. كعادتها قالت لي: اطلب؟ لم يكن أخلاقيًّا أن أطلب ما أريده بالفعل؛ ولذلك دخلت في لعبتها بطلب معرفة ما يحدث بالضبط في الخلوة؛ فأغلقت الطاولة واستندت إليها، ثم عادت إلى الوراء وشرعت في لف سيجارتين جديدتين".

مجموعة من الأصدقاء يعيشون يومهم يلعبون الطاولة.. يلتقون ويطوفون على المقاهي.. مركز الكون بالنسبة لهم هو الطاولة.. يتحركون حول هذا المركز في فضاء الواقع السياسي والاجتماعي في مصر.. مجموعة الطاولة التي تسهر يوميًا معًا وتغذيهم الحكايات، حتى تلك التي لا تعنيهم، ولكنهم بين رمية الزهر والحياة المعقدة في مصر ما بين ثورتين والأحزان العميقة والعابرة في حيواتهم الشخصية، لا يتخلون أبدًا عن المغامرة وعن إنهاء يومهم بـ "عشرة طاولة" على صوت أم كلثوم..!



محمد الشاذلي كاتب وصحفي عمل في الصحافة الثقافية منذ مطلع الثمانينيات، وغطى مؤتمرات أدبية في مصر والعالم، من أصغر مهرجان في الأقاليم إلى حفل توزيع جوائز نوبل في استكهولم عام 1988. حاور الكاتب غالبية كتّاب مصر والعالم العربي، كما عمل مراسلًا إذاعيًا وتليفزيونيًا، ورأس تحرير برامج فضائية عدة.صدر له: "لمس الأكتاف" 1989، و"تعاسات شكلية" 1998.

9 789774 279089





للشراء عبر موقعنا
store.almasriah.com

الدار المصرية اللبنانية